الأب الدكتور سهيل قاشا



في ذاكرة العراق القديم

قدم له
هنري حاماتي

بيروت 2009

الأب سهيل قاشا

لبنان في ذاكرة العراق القديم

اسم الكتاب: لبنان في ذاكرة العراق القديم
الكاتب: سهيل قاشا

الناشر: دار أبعاد
website: www.abaadpress.com
Email: info@ abaadpress.com

التوزيع:

التنضيد: مكتب عايدة للتحضير الطباعي الإخراج: عائدة سلامة

تـقـديـــم

الأب سهيل قاشا (مؤلف 82 كتاباً ومئات المقالات) هو من رعيل الباحثين الكبار الذين ترهبوا للعلم والثقافة. يجمع في اهتماماته التاريخ الكنسي مع التاريخ القديم والخواطر الشعرية، ويتعمق في التاريخ الاسلامي من خلال تياراته الفكرية وحتى من خلال دراسته حياة الرسول العربي الكريم، ويستهويه الاضاءة على اوضاع المسيحيين في العراق وفي ظل الحكم الاسلامي في مختلف حقباته.

يمارس الأب الباحث التعليم في جامعات عدة، ويعيش مأساة الشعب العراقي عموماً والظروف الصعبة التي يمر بها مسيحيو العراق. وتعبيراً عن محبته المزدوجة للعراق وللبنان آثر ان يؤلف هذا الكتاب الذي يحمل عنوان «لبنان في ذاكرة العراق القديم» وأكّد انه انكبّ على هذا البحث «خدمة للتاريخ والحضارة المشتركة بين لبنان والعراق وما يربطهما من اواصر التراث الواحد».

ومما لا شك فيه ان النصوص التي يعرضها الأب قاشا، على نحو كرونولوجي، تفيد كل مهتم بالعلاقات ما بين النهرين والساحل الفينيقي في مرحلة التاريخ القديم.

فشكراً للأب العالم على كل ما كتب والّف وتحية لروحه الطيبة وتواضعه، وليسمح لنا ان نشد على يده متمنين للشعب العراقي الأبي، الحرية والاستقلال والوحدة والسلام.

ولئن كانت اغلب النصوص الواردة في الكتاب تعود الى الحملات العسكرية والفتوحات ومآثر البطش والانتقام، واذا كان حاجز العراق ولبنان يعاني من مظاهر العنف والفوضى، فاننا نأمل في الحاضر والمستقبل ان يلعب الشعبان العراقي واللبناني الدور الطليعي في صياغة المشروع الحضاري للمنطقة وترسيخه على اسس التقدم والديمقراطية وحقوق الانسان.

د. عصام خليفة

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر في الجامعة اللبنانية

30 تموز 2008

مقدمة

من يتتبع أعمال الأب سهيل قاشا، بل مجاهيده في تاريخنا وتراثنا، يصب بالارهاق...

فأعماله فتوح متواصلة، لا تقف عند حدود!

هذا البتول المنحدر من رحم الحضارة السومرية الأكادية، هو أوديب عشق: يسعده ان يستكشف كل ملامح جمال وجه أمه ــ والدة حضارة الانسان ــ ما استطاع الى هذا سبيلاً، ويشقيه ان يرى بعضاً من هذه الملامح خافية عن الأبصار، تحت الركام، مجهولة من العالمين، مغبونة...

جعل الأب سهيل قاشا عنوان دراسته الجديدة هذه «لبنان في ذاكرة العراق القديم». وهذا «اللبنان» هو ما عثر عليه الأب سهيل في ارشيفات ممالك ما بين النهرين، ومدوناتها خلال العصور، ما انكشف منها وتمّ تسجيله مترجماً في الحوليات المختصة بالكشوف الأركيولوجية.

هو إذن «اللبنان» المحفوظ، في مرويات ملوك ما بين النهرين، عن غزواتهم لسواحل «البحر الكبير»، البحر الأبيض المتوسط.

فالمعني هنا، بلفظ لبنان، هو لبنان الجبل، وفق المدلول الأصلي العلمي لكلمة لبنان، مضافاً اليه ـ كما في خريطة لبنان الكبير ـ المدن / الدول الكنعانية الساحلية التي دعي أهلوها، في المكتوبات الأغريقية، فينيقيين.

هذه الملاحظة لا بد منها لتعريف القارىء أن «اللبنان» المعني في عنوان هذا الكتاب هو جغرافية لبنان الحديث، الذي تأسست دولته على يدي الانتداب الفرنسي عام 1926، فكانت جغرافيته قسماً من الجبل الذي اهتم ملوك ما بين النهرين بخشب أرزه، وقسماً من الساحل الكنعاني الممتد على طول الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، الذي دعي «البحر الكبير» في أدبيات أولئك الملوك.

وبعد، لا بد، في هذا التقديم، من التوقف عند ما دعي، في كل مدونات ملوك ما بين النهرين، الحروب والغزوات التي ملأت اخبارها صفحات تاريخ هذه المنطقة الممتدة من جبال زغروس والبختياري في أقصى الشرق حتى ساحل «البحر الكبير» في الغرب: غزوات وحروباً لن يكون ممكنا فهم دوافعها وعواملها ومداليلها دون منهج علمي يساعدنا على استقرائها، واقعاً وامكاناً في وقت واحد.

نحن مطالبون بمنهج يستند الى حقائق علمية يجب علينا التزامها اثناء نظرنا في وقائع تاريخنا، حتى نفهم فهماً سليماً هذا التاريخ.

الحقيقة الأولى هي ان الاجتماع البشري ـ ونحن نتكلم عن تاريخ جماعات انشأت اوساطاً ثقافية منذ ابتداء الألف الرابع قبل يسوع ـ مرّ بمراحل عدة متصلة تظاهرت فيها ألوان من الظواهر الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية؛ هي المراتب الصاعدة الأولى في سلّم التطور الانساني.

وآخر هذه المراتب كان تبلور شخصية الأمة / المجتمع وظهور الدولة القومية، وهذا منذ بضع مئات من السنين فقط.

الحقيقة الثانية هي ان الأساس الواقعي لهذه الشخصية المجتمعية هو شراكة الحياة في بيئة معينة من الأرض. وما شراكة الحياة سوى شبكة علاقات حيوية واقعية تنمو اضطراداً بنمو الانتاج والتبادل. وبهذا تكون وحدة الشعب/ وحدة الأمة «متولدة من تاريخ طويل يرجع الى ما قبل الزمن التاريخي الجلي». (سعاده)

الحقيقة الثالثة هي أن في نطاق هذا التطور تتكوّن المدن الأولى، مراكز تجمّع وتبادل، وتتكوّن الدول المدينية وممالكها، وتنشأ علاقات هذه الدول المدينية، صراعاتها وأحلافها، وكل هذا الذي ندعوه غزوات وحروباً، تفرضها فرضاً وحدة البيئة التي تقدم لدولة المدينة المتفوقة مشهد مدى حيوي واسع النطاق يمكن ضمه وانتزاعه من جموده في تاريخه

المتخلف عنها، كما يجب ضمه الى سلطتها واخضاعه لحمايتها، فلا يتعرض لخطر اجتياح خارجي يهدد الدولة ـ المدينة نفسها بالاجتياح او يهدد مصالحها الحيوية في مداها الحيوي، في أضعف احتمال!

من هنا، مثلاً، كان دور الامبراطوريتين الأكادية والآشورية حماية مدن الساحل الكنعاني ـ صور وصيدا وجبيل ـ من الغزو المصري، من جهة الجنوب، ومن غزوات الشعوب الهندو اوروبية من جهة الشمال والبحر.

الحقيقة الرابعة هي أن تتوسع الدولة ـ المدينة في مداها الحيوي الطبيعي ـ هذا الممكن لسهولته والواجب لضرورته ـ وتتحول دولة المدينة هذه الى دولة امبراطورية تشمل سلطتها مناطق واسعة جداً من مداها الحيوي الطبيعي: مناطق تبلغ مساحاتها آلاف المرات مساحة المدينة وضواحيها.

فليس غريباً اذن ان تكون بلادنا في جزئها الشرقي ما بين النهرين في وقت واحد: مهداً للحضارة ومهداً لأول امبراطورية في التاريخ البشري، مع سرجون الأكادي الكبير كما هو معترف به عالمياً وعلمياً اليوم!

فالتطور الحضاري ونشوء امبراطوريات الدول المدينية أمران متلازمان. وما أثينا ثم روما سوى مثلين متأخرين جداً عن وقائع تاريخنا القومي الحضاري.

وما من شيء في التاريخ كان صدفة.

الحقيقة الخامسة هي ما عرّفه الفيلسوف الألماني هيغل في مؤلفه «العقل في التاريخ»، بانقسام المدى الحيوي الطبيعي أو البيئة الطبيعية للأمة الواحدة الى اقسام ثلاثة هي: الأوساط العالية (les hauts milieux)، والأوساط السهلية والأوساط الساحلية.

في الأوساط العالية كالجبال العالية والصحارى، تقيم الجماعات المتخلفة، التي تحيا حياة متخلفة قاسية قوامها الرعاية والغزو وقطع طرق القوافل التجارية، متميزة بشدتها وعنفها وشجاعتها المكتسبة من تمرسها في مقتضيات حياتها وبقائها. فهي ههنا تنتظر الفرص المناسبة للإغارة على المناطق السهلية المحاذية لمواقعها: المناطق الزراعية الغنية بخصبها ومواردها التي تحيا جماعاتها حياة هادئة سلامية آخذة بالتطور، فتسطو عليها وتقبض على خيراتها، وتخضعها لسلطانها وتحكمها. وهذا ما يدعى في لغة التاريخ بالهجرات المنظمة التي هي عبارة عن غزوات عسكرية جماعية منظمة لقوى خارجية تشكلت في «المناطق العالية» فوق تخوم المجتمعات الراقية المستقرة في حياتها الزراعية والحرفية والمهنية المتطورة. ولقد عرفت بلادنا، وخصوصاً في حدودها الشمالية الشرقية

والشرقية، ألواناً من هذه الغزوات التي كانت دائماً تنتهي باستقرار الغزاة في المناطق السهلية الآخذة بأسباب التطور والتمدن. حاقنة جسم الاجتماع البشري فيها دماً جديداً، وباعثة في روح السلطة السياسية فيها قوة جديدة، فما الممالك التي تعرفنا إليها في ما بين النهرين بأسماء مختلفة عدة، السومرية والآشورية والكلدانية مثلاً، سوى تسميات لعهود سياسية نشأت في أوساط سهلية حضارية جراء غزوات كهذه، فتتابعت في هذه الأوساط عمليات التطور الثقافي الاقتصادي الاجتماعي بقوة عامل جديد اطلق قواها الكامنة في وجودها الحضاري، هو العامل السياسي.

والوسط الثالث الأرقى هو الوسط الساحلي. وفي منطقتنا هو ساحل الخليج مع الحضارة السومرية، جنوب ما بين النهرين، وهو ساحل «البحر الكبير»، بحر الساحل السوري، مع هؤلاء الكنعانيين الذين أبلغوا الحضارة السورية درجات عالية من التطور، ونقلوا مآتيها عبر البحار الى أثينا وروما.

وباسم أميرتهم أوروب التي علقها زوس إله الإغريق واختطفها دعيت أوروبا الحاضرة.

تعرف درجة تطور الشعوب بفنونها. ونعني بالفنون هنا التقنيات التي تلدها المعارف، والابداعات التي يحيا فضائلها البشر.

هكذا عند ساحل هذا البحر ولدت تقنية الكتابة التي هي بحق الثورة الثقافية العالمية الأولى في تاريخ البشر!

وعند هذا الساحل ولدت فنون التعدين، والنسيج، والتجارة العالمية وصناعة السفن، وسلك البحار.

وسيرى القارىء فيما أورده الأب سهيل قاشا في كتابه من حقائق هذا التاريخ المجيد، إن إمبراطوريات آكاد وآشور التي أخضعت مدن الساحل لسلطتها، كانت مهتمة في الدرجة الأولى بالجزية التي تفرضها عليها، وهي أشكال من منتجات الصناعات الكنعانية المتطورة التي كانت بضائعها الأساس الأول للحركة التجارية التي أنشأها الكنعانيون في البحر الكبير، وكانوا بها رواد التجارة العالمية الأولى.

هنري حاماتي

بيروت في 14 تموز 2008

تمهيد تاريخي

الفينيقيون، شعباً وحضارة، كانوا ومازالوا يثيرون اهتماماً كبيراً في الشرق والغرب: أصولهم، لغتهم، تراثهم، دولهم، خصائصهم البحرية والتجارية... هل هم كنعانيون، أم من أصول كنعانية؟ هل تراثهم الفكري أصيل أم دخيل؟ هل حقاً هم مستنبطون للأبجدية؟ أم ناشروها؟ هل أسسوا دولة قوية، أم دويلات بدائية، كانت دوماً تحت رحمة الغزاة لبلادهم كالمصريين غرباً، وكالبابليين والآشوريين والكلديين شرقاً؟

استفهامات عريضة وعديدة، لا نستطيع الإجابة عنها بهذه العجالة، إنما فقط نكتفي بما وضعناه عنواناً عريضاً لموضوعنا ألا وهو «لبنان، في ذاكرة العراق القديم».

إن زمن ظهور الفينيقيين على مسرح التاريخ قد يعود إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد أو قبله بقليل، وهو تاريخ غزو «شعوب البحر» وبداية العصر الحديدي، وكان علامة بارزة على بداية تاريخ الفينيقيين الحقيقي وحضارتهم.

أما المكان، فقد اتفق على أن موقع فينيقيا هو بين شكشو (تل سوقا TELL SUQAS) ويمكن رسم الحدود الشمالية لهذا الإقليم عند النقطة المحاذية لتل سوقا إذ لا يوجد إلى الشمال من هذه البلدة مقارّ فينيفية أخرى...

طبعاً، هناك مدينة أوغاريت، لكنها لا تنسب إلى الحضارة الفينيقية، زد على ذلك أن تاريخ أوغاريت ينتهي قبل القرن الثاني عشر قبل الميلاد... أما الحدود الجنوبية فهي عند النقطة المحاذية لمدينة عكا[1].

أما الحدود الشرقية والغربية فواضحة: البحر الأبيض المتوسط من الغرب، وجبال لبنان في الشرق، وتمتد جبال لبنان مما يلي الشريط الذي تتألف منه جبال العلويين، وتوازي البحر على مسافة تقارب ستين ميلاً، ويبلغ ارتفاعها في بعض الأمكنة ما بين ثلاثين ميلاً وسبعة أميال تتخللها رعان[2] صخرية تضرب في مياه اليم، وبين هذه الرعان تنفرج أودية صغيرة تجري فيها

(1) صحيح أن نقش أشمو نصّر يذكر دورا DOR ويافا إلى صيدا، وكان هذا في الحقبة الفارسية، إلا أن هاتين المدينتين لا تعتبران من المقارّ الفينيقية الثانية.

(2) رَعْن، بفتح الراء وتسكين العين، جاء كما في المورد: الرَّعن، قُنَّة الجبل الخارجة منه والداخلة في البحر.

مياه تنحدر من الجبال، وهي في العادة ينابيع صغيرة تغزُر في مواسم المطر، وتجف في فصل الصيف.

المضامين التاريخية التي ينطوي عليها هذا الموقع الجغرافي واضحة، في المكان الأول: الإقليم كله منحصر بين الجبال والبحر، وفي المكان الثاني كانت التجزئة الداخلية للمنطقة عائقاً دون قيام وحدة سياسية، بل ودون نشوء وعي وحدوي، مما نجم عنه قيام دويلات المدن وتعددية في المجتمع. وفي المكان الثالث كان البحر المتوسط هو الطريق الطبيعي الوحيد المتاح أمامهم للامتداد والتوسع. ومن هنا نشأت ضرورة الملاحة في البحر المتوسط عن مشكلة المواصلات، فقد كان الانتقال عن طريق البرّ صعباً لامتداد الجبال في البحر، التي تشكل ممرات ضيقة، وعندئذ تكون الملاحة البحرية أيسر وسيلة للنقل وأضمنها، لا فرق إن كان التنقل بين بلدة وأخرى أو بين قطر وآخر.

كانت فينيقيا من أخصب بلدان المشرق، فكانت زراعتها نامية جداً، على الرغم من محدودية الأرض الصالحة للزراعة، كانت تنبت فيها الحنطة والكرمة والزيتون والأشجار المثمرة (خصوصاً التين والجمّيز).

لكن أعظم ثروات فينيقيا على ما تفيدنا به النصوص التاريخية كانت غابات جبال لبنان. كان يكثر فيها شجر الصنوبر والسرو، وفوق كل شيء شجر الأرز المشهور في جميع أنحاء الشرق الأدنى، فقد ظلت البعثات القادمة من ما بين النهرين (العراق) أو من مصر تفد إلى فينيقيا على مدى العصور لكي تحصل على هذه المادة الثمينة التي كانت تعطّر كل ما حولها برائحتها الزكية.

أما حيوانات فينيقيا القديمة فكانت تتفق مع ما يحيط بها ومع طقسها، كانت الجبال مسكونة بالنمور والدببة والضباع والثعالب وبنات آوى والأرانب البرية، بينما كانت الحيوانات الأهلية كالحمير والثيران والغنم والماعز أكثرها شيوعاً. كان فيها وفرة من السمك يصيدونه من البحر وخصوصاً سمك الموركس الأرجواني اللون الذي أعطى الإقليم اسمه.

مدخل تاريخي

التاريخ الفينيقي الأول، إجمالاً، يمكن إرجاعه إلى مصادر غير مباشرة، فالوقائع التاريخية التي يمكن استخلاصها من النقوش الوجيزة التي نقشت باللغة الفينيقية ضئيلة جداً، إذ اقتصرت على أسماء حكام المدن بمفردها أو على تعاقب ملوك على حكم مدينة أو تدشين نصب تذكاري أو إشارات إلى آلهة حارسة. ثم إن أقدم هذه النقوش هو ما كان من مدينة جبيل حيث وجدت مجموعة من النصوص ترجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد بينما لا تمدّنا المدن الأخرى إلا بالقليل من المعلومات المتأخرة.

ومن المصادر - التي لابد - كانت في الأصل مصادر مباشرة، ثم نقلت إلينا في صيغة غير مباشرة، حوليات صور التي اقتبسها يوسيفوس[1] العبراني والتي تشير إلى حقبتين من القرن العاشر إلى القرن الثامن قبل الميلاد، ومن الثامن إلى

(1) يوسيفوس (فلافيوس) (37 - 100) ولد في أورشليم. مؤرخ يهودي له «الحرب اليهودية» و«العاديات اليهودية» مع ترجمة حياته.

السادس قبل الميلاد تمدنا بالعديد من الوقائع عن تاريخ المدن - أسماء الملوك، وبعض المعلومات المفصلة عن حوادث محلية.

كذلك جاء ذكر المدن الفينيقية، في المصادر المصرية والرافدينية (العراق)، وخاصة الحوليات الآشورية بصفة رئيسية وهذه تشتمل على وقائع تتعلق بإخضاع المدن السورية - الفلسطينية.

وهناك مصدر هام جداً وهو مصدر غير مباشر أيضاً عن التاريخ الفينيقي في الشرق هو «العهد القديم» الذي يمدنا بالكثير من المعلومات عن العلاقات مع المدن الفينيقية وخصوصاً مع مدينة صور وصيدا.

نشوء كيان فينيقيا

كان لغزو «شعوب البحر» في حوالي العام 1200 قبل الميلاد أثر مباشر في بعض مدن الساحل: دمار أرواد وكذلك صيدا على ما ذكره جوستن. غير أن الوضع السياسي والعسكري تميّز ببداية عهد من الاستقلال، فقد ظلّت الدول العظمى غير فاعلة في المنطقة السورية - الفلسطينية بعضاً من الوقت: آشور قابعة وراء حدودها، ومصر منهزمة: الدول الآرامية والعبرية مزدهرة. والمدائن الفينيقية محصورة في الساحل بين الجبل والبحر.

كانت كبريات المدن الفينيقية في هذه المرحلة أرواد وجبيل وصيدا وصور وعكا[1]. وثمة دلائل عديدة ومختلفة تشير إلى سيطرة صيدا على المدائن الأخرى في بداية الأمر، ولنبدأ بهذه الأخيرة.

(1) إن بيروت لا ذكر لها بهذه الفترة.

استعمل اسم «الصيدونيين» كل من «العهد القديم» وهوميروس[1] للدلالة على الشعب الفينيقي كله. ثم اقتصر على المدينة بعينها، وهي مدينة صيدا، وينطوي هذا الاستعمال إما على سيادة صيدا على سائر المدن الفينيقية، وإما ـ وهذا وارد على وجه الخصوص ـ للدلالة على وحدة نسبية فيما بين هذه المدن حتى ولو كانت حاصلة من تأثير قوى خارجية أكثر منها داخلية.

والدليل الآخر على سيادة مدينة صيدا الرواية التي نقلها المؤرخ يوسيفوس عن تيماوس، قبل أربعين سنة ومائتين من تشييد هيكل أورشليم، أي بعد قليل من عام 1200 قبل الميلاد وقد جاء فيها:

«إن أهالي صيدا، بعد أن هزمهم ملك العسقلانيين ـ وربما شعوب البحر ـ لاذوا بالفرار في سفنهم وأسسوا مدينة صور ـ الرواية غير دقيقة، لأن مدينة صور كانت موجودة قبل ذلك بكثير، لكن قد يكون لهذه الرواية أساس تاريخي كأن

(1) هوميروس (القرن التاسع قبل الميلاد) ولد في آسيا الصغرى. شاعر ملحمي يوناني قيل إنه كان أعمى: نسب إليه المؤلفون اليونان أشعار «الألياذة» و«الأوديسة» و«الأغاني الهوميرية» التي أثرت تأثيراً عميقاً على مستقبل الشعر اليوناني. أصبحت أشعاره موضوع دراسة للفلاسفة والمربين والناقدين خلال الأجيال.

يكون جماعة من أهالي صيدا انتقلت إلى منطقة صور تحت وطأة «شعوب البحر» ثم عادت إلى صيدا بعد أن انتهبها الغزاة. وعلى أي حال تتفق مختلف المصادر على أن العهد الصوري قد بدأ في حوالي العام 1200 قبل الميلاد، على حين دامت سيادة صيدا على سائر المدن الفينيقية، ربما حتى حوالي عام 1000 قبل الميلاد. وبعد هذا التاريخ زادت أهمية صور وسادت.

لبنان في ملحمة كلكامش

ملحمة كلكامش، التي يصح أن نسميها أوديسة العراق القديم، يضعها الباحثون ومؤرخو الأدب المحدثون بين شوامخ الأدب العالمي. ولعلني لا أبالغ إذا قلت إنه لو لم يأتنا من حضارة وادي الرافدين، من منجزاتها وعلومها وفنونها شيء سوى هذه الملحمة، لكانت جديرة بأن تتبوّأ تلك الحضارة مكانة سامية بين الحضارات العالمية القديمة، فهي تعتبر أقدم نوع من أدب الملاحم البطولية في تاريخ جميع الحضارات، وإلى هذا، فهي أطول وأكمل ملحمة عرفتها حضارات العالم القديم، وليس ما يقرن بها أو ما يضاهيها من آداب الحضارات القديمة قبل الألياذة والأوديسة في الأدب اليوناني. فمن يكون كلكامش؟

كلكاكش، ملك مدينة أوروك (الوركاء) من سلالة أوروك الأولى، جرى تأليهه، وهو بطل الملحمة الأسطورية الغنية بالأحداث المثيرة والأعمال الخارقة والقصص الرائعة.

والملحمة بحد ذاتها أسطورة سومرية بابلية تغنّت بها الأجيال منذ الألف الثالث قبل الميلاد في قصيدة تحت عنوان «هو الذي رأى كل شيء».

تدور هذه الأسطورة حول شخصية كلكامش ملك أوروك السومرية في الألف الثالث قبل الميلاد. وما نعرفه منها وصلنا من مكتبة آشور بانيبال في نينوى، ومن مقاطع وترجمات حثية وحورية. وهي تبيّن هاجس كشف النقاب عن عالم ما بعد الحياة وعن القلق أمام الموت.

كلكامش هو الرجل الذي يعلم كل شيء، ولد في قصر ملك أوروك وبنى أسوار المدينة، واجتمعت الآلهة عند ولادته ومنحته صفات خارقة وأعطته جسداً كاملاً، أمّه الإلهة نينسون التي «تعرف كل المعرفة» وأبوه «لوكال بندا» ملك ورئيس كهنة.

نما كلكامش وأصبح جباراً وملكاً عظيماً، وطغى عليه الغرور إذ لم يجد إنساناً يعادله بقوته، فكره الشعب ومجلس الشيوخ طغيان ملكهم فقدّموا القرابين في معبد «أرورو» إلهة الأمومة العظيمة، التي سمعت شكواهم واستجابت لطلباتهم فخلقت نظيراً لكلكامش هو انكيدو. وجعلت مقدّمه ونصفه الأعلى على شكل إنسان ومؤخره ونصفه الأسفل ثوراً. وعاش مع الوحوش في البراري يدفع عنها أذى الصيادين، فأرسل إليه كلكامش ببغي نذيرة من معبد عشتار تستدرجه بجمالها إلى المدينة، وتعرّف على ملذّات الحياة البشرية معها، وأقنعته

العاهرة بالتوجه إلى أوروك حيث عارك (صارع) كلكامش وأصبح من ثمّ صديقاً حميماً له.

رحل كلكامش وأنكيدو إلى غابة الأرز المسحورة ليضع اسمه في سجل الآلهة والأبطال الخالدين[1] وتغلبا على حارس الغابة الوحش خمبابا. وتولعت عشتار بكلكامش وراودته عن نفسها، وعرضت عليه أن يتزوج بها، إلا أن كلكامش رفض طلبها لأنها لم تكن يوماً وفيّة لمن أحبّت، فطلبت عشتار من أبيها أن يرسل ثور السماء لضرب كلكامش. ولكن كلكامش وأنكيدو عاركا (صارعا) الثور السماوي وقتلاه، وانتزع أنكيدو الفخذ الأيمن للثور وقذفه بوجه عشتار.

وحكمت الآلهة على أنكيدو بالموت، فمرض ومات في اليوم الثالث عشر من مرضه بين ذراعي رفيقه كلكامش الذي لم يكن يفارقه، فبكى كلكامش وتأكد أن مصيره لن يكون أفضل من مصير أنكيدو. وكان قد سمع أن «أوتانبشتم»[2] نجا من الطوفان ومنحته الآلهة الحياة الأبدية.

(1) طه باقر، ملحمة كلكامش، الطبعة الخامسة (1986) طبعة خاصة دار المدى للثقافة والنشر 2001، ص95.

(2) أوتانبشتم: من أقدم رجال العراق القديم، نجا مع عائلته من الطوفان حسب ملحمة كلكامش وتسلسل منه الجنس البشري الجديد، ووهبت له الآلهة الخلود وسرّه. يقابله

فأخذ يجوب البراري والقفار حتى وصل إلى ماشو، الجبال العظيمة، والتقى هناك بالرجال العقارب فتركوه يمرّ، والتقى صاحبة الحانة سيدور سابيتو (أوسيدوري جيتو) وشكا إليها أمره. فقالت له بائعة الخمر إن الآلهة حين خلقت البشر فرضت عليهم الموت ونصحته بأن يتفرغ لأموره الدنيوية، ويعيش متقبلاً فكرة الموت.

وأخيراً يصل كلكامش بعد صعوبات جمّة إلى أوتانبشتم فيروي له هذا كيف حصل على الخلود بعد الطوفان، ويعطيه سرّ الخلود، عشبة الحياة. وفي طريق عودته إلى بلاده اقتربت منه حيّة وهو نائم وسرقت منه عشبة الحياة. ولم يكن بالتالي بدّ من موته كسائر أفراد البشر، بعد أن جدد أسوار الوركاء وقصورها ونظم شؤونها فصار خالداً بخلودها.

إن أقدم النصوص التاريخية التي ورد فيها اسم «لبنان» هي النصوص العراقية - وأقدمها، نص ملحمة كلكامش الآتي ذكره - تعود بالتحديد إلى السومريين والاكديين والبابليين والآشوريين والكلديين التي أنشأت أقدم الحضارات في وادي الرافدين، وأسست لها دولاً تطور بعضها تدرجاً من حيث

نوح الطوفان التوراتي وأولاده الثلاثة سام وحام ويافث وهذا هو الأصل التاريخي الأدبي لحكاية نوح الطوفان التوراتي....

الأهمية والاتساع من مرحلة «مملكة المدينة» إلى إنشاء الإمبراطوريات الكبرى.

أول هذه الشعوب هم السومريون الذين أنشأوا لهم ممالك مدينية في جنوب وادي دجلة والفرات منذ نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، وهي المرحلة التي تبدأ بها العصور التاريخية مترافقة مع ظهور الكتابة.

وأشهر الحكام السومريين هو كلكامش GI-IL-GA-MESH الملك الخامس من الأسرة الأولى لملوك مدينة أوروك إحدى الدول المدينية السومرية، في مطلع العصر المسمى بعصر فجر السلالات الأولى (3000 - 2400ق.م)[1] وقد كتبت عن كلكامش ملحمة بطولية هي الأقدم في تاريخ الحضارات وتصحّ تسميتها بـ(أوديسة العراق القديم) كما سبق وأشرنا.

في «ملحمة كلكامش» ورد اسم لبنان في واحد من أقدم النصوص التاريخية، مكتوباً بالخط المسماري المقطعي على

(1) أقدم كتابة ذكرت اسم كلكامش، الألواح الصورية التي وُجدت في قارة (شروباك القديمة) ويرجع زمنها على الأرجح إلى أواخر عهد جمدة نصر (3200 ق.م). راجع طه باقر، ملحمة كلكامش، مطبعة الرابطة، بغداد 1962، ص17 - 18 و38.

ألواح من الآجر المشوي. هذه الملحمة السومرية الأصل[1]. تبلورت بشكلها الاكدي في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد. ودوّنت كاملة في العهد البابلي القديم (أوائل الألف الثاني قبل الميلاد)[2] أما أحدث نصوصها بصيغتها النهائية، فقد اكتشف في مكتبة الملك الآشوري آشور بانيبال (668 - 626 ق.م) في مدينة نينوى، وتتألف من اثني عشر لوحاً من الآجر المشوي مدوّنة بالخط المسماري المقطعي.

تروي الملحمة قصة الأعمال البطولية التي قام بها البطل كلكامش في سبيل تخليد ذكره بعد الممات و«الذكر للإنسان عمر ثان» لأن الآلهة، كما جاء في الملحمة، «قد استأثرت بالحياة وقدّرت الموت من نصيب البشرية»[3].

من أعمال كلكامش البطولية أنه أتى من الشرق باتجاه «غابة الأرز» في «جبل لبنان» مع صديقه البطل «أنكيدو» لينقلا خشب الأرز الثمين إلى مدينة أوروك. ولكن كان على الصديقين مجابهة المارد «خمبابا» أو «هواوا» حارس الغابة،

---

(1) طه باقر، ملحمة كلكامش، ص17 - 18، د. انطوان خوري حرب، لبنان جدلية الاسم والكيان عبر 4000 سنة، منشورات مؤسسة التراث اللبناني الطبعة العربية الأولى (2000) ص36.

(2) د. انطوان حرب، المصدر نفسه، ص36، طه باقر، المصدر نفسه ص36.

(3) طه باقر، المصدر نفسه، ص36.

الذي تصفه الملحمة بأنه «مقاتل»، «لا يصدّ له هجوم» «قوي لا ينام أبداً»، «لا يستطيع الصمود إزاءه في موطنه أحد»[1].

وإذا اعتبرنا أن لملحمة كلكامش مدلولات رمزية لما تتضمنه من أحداث عجيبة وأوصاف خارقة، فلابد من الإشارة إلى أن حارس«غابة الأرز» يرمز على الأرجح إلى «الجبليين» إلى الشعب الأصلي، القوي، الشديد البأس، الذي يسكن «جبل لبنان» في العصور القديمة ويحمي أرضه و«غابته» من الشرّ ومن تطفّل الطارئين؟؟

من ناحية أخرى، لابد من التأكيد على أن «لبنان» المذكور في الملحمة، هو الجبل المطلّ على «بحر أمورو العظيم» الذي نقش ملوك آشور وبابل لوحاتهم على صخور شاطئه عند مصب نهر الكلب. إنه الجبل الممتد «من جبل بعل حرمون إلى مدخل حماة»[2] «الناظر إلى دمشق»[3] هو الجبل الذي استنزف حكام الشرق القديم أشجار غاباته وبنوع خاص، أرزه، وتباهوا بما فعلوه في الكتابات التي خلفوها.

---

(1) طه باقر، المصدر نفسه، ص53 - 54.

(2) راجع سفر القضاة من العهد القديم فصل 33.

(3) راجع سفر نشيد الأناشيد من العهد القديم 7: 4.

في مطلع اللوح الرابع، يروي الشاعر الملحمي السومري رحلة البطلين «كلكامش» و«أنكيدو» إلى غابة الأرز في «جبل لبنان» وفيما يلي النص الخاص بذكر لبنان في ملحمة كلكامش[1]:

«علام أنت راغب في تحقيق هذا الطلب[2]

ولم عقدت العزم على الذهاب إلى الغابة؟

....

قبّل أحدهما الآخر وعقدا أواصر الود ما بينهما

....

أُمُّ كلكامش المتمرسة بكل شيء، رفعت يديها إلى «شمش»

العمود الثاني

(نقص من نحو 25 سطراً)

....

ملأ الأسى قلب «أنكيدو» واغرورقت عيناه بالدموع

وأطلق الحسرات والآهات

فواساه كلكامش وكلّمه قائلاً:

---

(1) طه باقر، المصدر نفسه، ص96 ـ 109.

(2) لم يبق من العمود الأول من هذا اللوح سوى أسطر قليلة.

«لماذا اغرورقت عيناك بالدموع يا صديقي؟

ولِمَ ملأ الأسى لبّك وصرت تصعد الزفرات»

فتح «أنكيدو» فاه وقال لكلكامش:

«يا صديقي أشعر بالعبرات تخنقني

لقد تراخى ساعداي

واستحالت قوتي وَهْناً

فخاطب كلكامش «أنكيدو» وقال له:

العمود الثالث:

«يسكن في الغابة «خمبابا»[1] الرهيب

فلنقتله كلانا أنا وأنت

لكي نزيل الشرّ من البلاد

....

فتح «أنكيدو» فاه وقال لكلكامش:

«يا صديقي لقد علمت حينما كنت أجول

في التلال والبراري الواسعة مع حيوان البر

أن الغابة تمتد مسافة عشرة آلاف ساعة في كل جهة[2]

---

(1) خمبابا: العفريت الذي يحرس غابة الأرز، وقد ورد اسمه في نصوص الألواح البابلية القديمة بهيئة (خواوا).

(2) المصطلح البابلي «بيرو» يعني ساعة مضاعفة لقياس الزمن والمسافات.

فمن يجرؤ على الإيغال في داخلها

و«خمبابا» زئيره عباب الطوفان

تنبعث من فمه النار، ونَفَسُه الموت الزؤام

فعلام ترغب في القيام بهذا الأمر

«خمبابا» لا قبل لأحد بهجومه مثل ماكنة الحصار

ففتح كلكامش فاه وقال لـ«أنكيدو»

«عزمت لأرتقين جبال الأرز

وأدخل الغابة، مسكن «خمبابا»

وسآخذ معي فأساً لأستعين بها في القتال

أما أنت فامكث هنا، وسأذهب أنا وحدي

.... (نحو من 8 أسطر مخرومة)

ففتح «أنكيدو» فاه وقال لكلكامش:

«كيف سندخل غابة الأرز يا كلكامش

وأن حارسها مقاتل، وهو قوي لا ينام»

.... (ثلاثة أسهر مخرومة)

ولحفظ غابة الأرز عيّنه «انليل»

وجعل هيئته تبعث الرعب في الناس

خمبابا زئيره مثل عباب الطوفان

فتح كلكامش فاه وقال لأنكيدو:

«يا صديقي، من الذي يستطيع أن يرقى إلى السماء

فالآلهة وحدهم هم الذين يعيشون إلى الأبد مع «شمش»[1]

أما البشر فأيامهم معدودات[2]

وكل ما عملوا عبث يذهب مع الريح

لقد صرت تخشى الموت ونحن ما زلنا هنا

فماذا دهى قوة بطولتك

دعني إذن أتقدّم قبلك وليناديني صوتك:

«تقدم ولا تخف»

وإذا ما هلكت فسأخلّد لي اسماً، (وسيقولون عني)

من بعد أن تولد الأجيال الآتية فيما بعد

«لقد هلك كلكامش في نزاله مع خمبابا المارد»

.... (نحو ستة أسطر مشوّهة، ويبدو أن الكلام الذي يلي هو لكلكامش):

«بقولك هذا أحزنت قلبي

على أنني سأمد يدي وأقطع أشجار الأرز

ولأكوّن لي اسماً خالداً

وسأصدر يا صديقي أوامري إلى صانعي السلاح

---

(1) وفي ترجمة أخرى محتملة: «يعيشون تحت الشمس إلى الأبد».

(2) قارن عبارة سفر الجامعة (التوراة) 1: 3 ـ 4.

وسيصنعون السلاح بحضورنا»

صدرت الأوامر إلى صانعي السلاح فاجتمعوا وتشاوروا

صنعوا أسلحة عظيمة، سبكوا فؤوساً تزن كل منها ثلاث وزنات[1]

وسبكوا سيوفاً كبيرة تصل كل منها وزنتين وقبضاتها ثلاثين «منا»

وسيوفاً (أغمادها) من ذهب يزن الواحد منها ثلاثين منا

وتسلح كلكامش و«أنكيدو» بأسلحة زنتها عشر وزنات

تجمع الناس في شوارع «أوروك» إزاء الباب ذي المزاليج السبعة

وشاهد الناس كلكامش في دروب «أوروك» ذات الأسواق

وجلس شيب أوروك قدام كلكامش فخاطبهم

وقال لهم هكذا:

«اسمعوا يا شيب (شيوخ) «أوروك»، ذات الأسواق:

أريد، أنا كلكامش، أن أرى من يتحدثون عنه

ذاك الذي ملأ اسمه البلدان الرعب

عزمت على أن أغلبه في غابة الأرز

(1) الوزنة البابلية تساوي ستين منا بابلياً. و«المنا» نحو نصف كيلوغرام أو رطل إنكليزي.

وسأسمع البلاد بأنباء ابن «أوروك»

فتقول عني: ما أشجع سليل أوروك وما أقواه!

سأمد يدي وأقص الأرز فأسجل لنفسي اسماً خالداً

فأجاب شيب «أوروك»، ذات الأسواق؛ وقالوا لكلكامش

يا كلكامش أنت ما زلت شاباً وقد حملك قلبك مدى بعيداً

وأنت لا تعرف عاقبة ما أنت مقدم عليه

إننا سمعنا عن «خمبابا» أن بنيته غريبة مخيفة

فمن ذا الذي يصمد إزاء أسلحته

والغابة تمتد عشرة آلاف «ساعة مضاعفة» في كل الجهات

فمن ذا الذي يستطيع أن يوغل في داخلها

وأما «خمبابا» فزئيره عباب الطوفان

وتنبعث من فيه شواظ النيران ونَفَسُه الموت

فعلام رغبت في الإقدام على هذا الأمر؟

لا قِبَلَ لأحد أن يصمد إزاء «خمبابا».

ولما سمع كلكامش هذا الكلام من ناحيته تلفت حوله

وتطلع إلى صاحبه وضحك قائلاً:

كيف سأجيبهم يا صاحبي؟

أأجيبهم بأنني أخاف من خمبابا

وسأظل ملازماً بيتي طوال أيام حياتي الباقية؟

.... (يكون النص في الأسطر القليلة التالية مشوّهاً ويبدو من الكلمات القليلة الباقية أنها تتضمن كلام كلكامش إلى صديقه أنكيدو وبعد هذا النقص نجد شيوخ أوروك يخاطبون كلكامش داعين له بالتوفيق):

ثم خاطب شيب (شيوخ) أوروك كلكامش وقالوا له:

عسى أن ينصرك إلهك الحامي[1]

وعساه أن يرجعك سالماً في طريق عودتك إلى بلدك

ويعيدك سالماً إلى ميناء «أوروك»

ثم سجد كلكامش للإله «شمش» ودعا قائلاً:

«إنني ذاهب يا شمش وإليك أرفع يدي بالدعاء

ارجعني سالماً إلى ميناء «أوروك»

عسى أن تنال روحي الخير والبركة

وانشر عليّ ظلك واشملني بحمايتك

ثم دعا كلكامش صديقه واستطلع فاله

---

(1) وفي بعض الروايات السومرية الخاصة بسفر كلكامش إلى أرض الخلود نجد كلكامش يتقدم إلى الإله شمش وهو ممسك بجدي أبيض وبآخر أسمر وقد وضعهما على صدره ليقدمهما إلى الإله شمش، كما أمسك بيده الأخرى بصولجانه الفضي داعياً «شمش» أن يعينه في رحلته ويرجعه سالماً. والمشهد الأول كثيراً ما يمثل في المنحوتات الآشورية.

.... (انخرام نحو 6 أسطر من النص، ويبدو من أول سطر من النص الباقي أن طالعه لم يسعفه)

اللوح السادس:

انهمرت الدموعُ على وجه كلكامش

.... (خمسة أسطر مخرومة)

جاؤوا إليه بأسلحته وقلدوه السيوف العظيمة

زودوه بالقوس والكنانة، وأخذ معه الفؤوس

تنكب قوس «أنشان»[1] وتقلد سيفه

وجاء الناس إلى كلكامش وتمنوا له قرب العودة

وباركه الشيب (الشيوخ) وأسدوا له النصح في سفره

وقالوا له:

«أيها الملك كنا نطيعك في مجلس الشورى[2]

فاستمع إلينا وخذ بمشورتنا أيها الملك

لا تتكل على قوتك وحدها يا كلكامش

---

(1) «أنشان» إقليم في بلاد عيلام التي هي عربستان أو الأحواز الآن.

(2) تشير المصادر الكثيرة من حضارة وادي الرافدين إلى أن نوعاً من نظام حكم الشورى أو نظام الحكم الديمقراطي كان يمارسه العراقيون الأقدمون في فجر حياتهم السياسية. وإذا كان ليس في الوسع شرح هذا الموضوع التاريخي المهم فنحيل القارئ إلى مجلة «سومر» (1951) ص23، كذلك راجع:

- Jacobsen, in the Journal pt Near Eastern studies, vol II, no.3 (1943) 195 ff.
- S. N. Kramer, From the Tablets of summer (1956) chap-4.

تبصر في أمرك واحم نفسك

دعه يتقدم في الطريق وابق على نفسك

دع «أنكيدو» يسير أمامك، فإنه يعرف الطريق وقد سلكه

إنه يعرف الطريق إلى الأرز، دعه يتوغل في مسالك خمبابا

وأن يسير في الطليعة يحمي صاحبه

ليأخذ الحذر ويتبصّر في حماية نفسه

وعسى «شمش» أن يجعلك تنال رغبتك

وعساه يُري عينيك ما قاله فمك

وعساه أن يفتح لك السبيل المسدود

ويفتح الطريق لمسراك، ويمهد مسالك الجبال لقدميك

عسى الليل أن يأتيك بما يسرك ويفرحك

وعسى أن يقف «لوكال بندا»[1] بجانبك

ويجعلك تحقق رغبتك

ومثل الطفل عساك أن تحقق أمنيتك

وبعد قتل «خمبابا» الذي تسعى لتحقيقه اغسل قدميك

وعند استراحتك مساء احفر بئراً

---

(1) لوكال بند (بلفظ الكاف كافاً فارسية) إله كلكامش الحامي، وزوج الاله ننسون أو (ننسونا)، أم كلكامش.

ولتكن قربتك ملأى بالماء النقي على الدوام

قرّب الماء البارد إلى «شمش»

وردد ذكر «لوكال بندا» دائماً

العمود الثالث

النص الآشوري

ففتح كلكامش فاه وقال لأنكيدو

«هلم بنا يا صاحبي إلى (معبد) «أي كال[1] - ماخ»

إلى حضرة «ننسون» الملكة العظيمة

فإن «ننسون» الحكيمة البصيرة بكل معرفة

ستمحضنا النصح وتسدد خطانا» (تثبت أقدامنا)

فسار كلكامش وأنكيدو وقصدا «أي كال - ماخ»

مثل كلكامش بحضرة «ننسون»، الملكة العظيمة

دخل كلكامش واقترب منها وقال:

«يا ننسون لقد اعتزمت أمراً جسيماً

اعتزمت سفراً بعيداً، إلى موطن «خمبابا»

إنني مقدم على قتال لا أعرف عاقبته

ومزمع على السير في طريق لا أعرف مسالكه

فحتى اليوم الذي أذهب فيه وأعود

---

(1) أي كال، أصل مفردة هيكل العربية.

وإلى أن أبلغ غابة الأرز العظيمة

وأذبح خمبابا المارد

وأمحو من على الأرض كل شر يمقته «شمش»

وأحرقت تنسون البخور

قدمت قربان البخور ورفعت يديها إلى «شمش» وقالت:

«علام أعطيت ولدي كلكامش قلباً مضطرباً لا يستقر

والآن حثثته فاعتزم سفراً بعيداً، إلى موطن «خمبابا»

سيلاقي نزالاً لا يُعرف عاقبته

وسيسير في طريق لا يعرف مسالكها

فحتى اليوم الذي يذهب فيه ويعود

وحتى يبلغ غابة الأرز

ويقتل خمبابا المارد

ويمحو من على الأرض كل شرّ تمقته

عسى عروسك «آي»[1] أن تذكرك به.

ولتوكل به حراس الليل والكواكب وأباك «سين»

حين تحتجب أنت في المساء[1].

---

(1) الآلهة «آي» أو «آية»، زوج شمش وهي تمثل الفجر مثل الآلهة اليونانية «ايوس» (EOS) والرومانية «أرورا» (Aurora).

العمود الرابع

.... (نقص كبير في اللوح)

ثم أطفأت البخور وعوذت وأحضرت الكاهنات

والبغايا المقدسات والمتبتلات

ودعت إليها «أنكيدو» وأوصته قائلة:

«يا أنكيدو» القوي، الذي ليس من رحمي،

قد اتخذتك منذ الآن ولداً

ثم قلدت عنقه بقلادة جواهر لتكون موثقاً منه

وقالت له:

«ها إنني أئتمنك على ولدي فارجعه إليّ سالماً

.... (نقص كبير في النص حيث ينخرم معظم الحقل الرابع والحقل الذي يليه بأجمعه، ويستمر النقص في اللوح الرابع «النص الآشوري». والنصوص المخرومة بلا شك تتضمن وصف سفر البطلين إلى غابة الأرز ولم يبق من أخبار ذلك سوى كسر ذات نصوص مقطعة وبالنظر إلى كثرة

---

(1) حراس الليل هم الآلهة الموكلون بحراسة الليل. والإله (سين) الإله القمر، الذي اعتقدوا فيه أنه أبو الإله «شمش» حيث يتولد النهار من الليل. وعبادة الإله القمر، مثل الإله الشمس، انتشرت في أماكن كثيرة من الشرق الأدنى. ومن ذلك جنوب الجزيرة العربية فيما قبل الإسلام وعرف بأسماء مختلفة أشهرها: 1 ـ المقا (في سبأ) 2 ـ سين (حضرموت) 3 ـ ود (معين) 4 ـ غم (قتبان).

النواقص في اللوحين الرابع والخامس رأينا أن نترجم ما بقي منها ترجمة ملخصة وبشيء من التصرف:

بعد سفر عشرين ساعة مضاعفة تبلغا بقليل من الزاد

وبعد ثلاثين ساعة مضاعفة توقفا ليمضيا الليل

ثم انطلقا سائرين (خمسين) ساعة مضاعفة أثناء النهار

وقطعا مدى سفر شهر ونصف الشهر في ثلاثة أيام[1]

وحفرا بئراً وقربا إلى الإله «شمش»

وبعد أن قطعا تلك المسافة الطويلة شارفا مدخل الغابة

وكان مدخلاً عجيباً بهرهما مشهده، إنهما لم يصلا بعد إلى الغابة

ولكن أشجار الأرز في المدخل كان منظرها عجيباً

فكان علوها اثنتين وسبعين ذراعاً، وعرض المدخل أربعاً وعشرين ذراعاً

ووجدا عنده عفريتاً عيّنه «خمبابا» ليحرسه

فشجع «أنكيدو» صديقه كلكامش أن يتقدم

ليأسر الحارس قبل أن يأخذ سلاحه

---

(1) إن المسافة التي تقطع في الساعة البابلية المضاعفة تبلغ نحو فرسخين، وبالضبط 10.8 كيلومتر. وتكون المسافة ثلاث مرات خمسين ساعة مضاعفة نحو 1600 كيلومتر، وهي المسافة التقريبية بين بلاد بابل ولبنان (منطقة الأرز)، حول ذلك انظر Schatt Das Gilgamesh Epos (1958) p.43.

فتشجع كلكامش، وأسرع الصديقان وهجما عليه وقتلاه

ولكن لما أراد «أنكيدو» الدخول إلى الغابة شلّت قواه بتأثير الباب المسحور، فنادى كلكامش وحذره من الدخول

ولكن كلكامش شجع صديقه قائلاً:

أبعد أن عانينا هذه الصعاب

وقطعنا هذا السفر البعيد نعود من حيث أتينا خائبين

أنت الذي مارست النزال والصعاب، تشجع وكن بجانبي

فتعود إليك شجاعتك ويفارقك الرعب والشلل

أيليق بصديقي أن يحجم ويتخلف؟

كلا يا صديقي علينا أن نتقدم ونوغل في قلب الغابة

وسيحمي أحدنا الآخر، وإذا ما سقطنا في النزال

فسنخلف من بعدنا اسماً خالداً.

استطاع البطلان أن يجتازا مدخل الغابة ووصلا إلى قلبها فأبصرا الجبال الخضر، وذهلا من مشهد غابة الأرز وسحر جمالها ثم تتبعا المسالك التي يسير فيها عفريت الغابة «خمبابا» وشاهدا من بين ما شاهدا جبل أرز خاص بالآلهة، حيث أقيم عرش الإلهة «ارنيني» (عشتار) وحيث تتعالى أشجار الأرز أمام ذلك الجبل بظلالها الوارفة التي تبعث البهجة والسرور وعند غروب الشمس حفر كلكامش بئراً وقرب منها.

وارتقى الجبل وسكب الماء المقدس وقرّب الطعام
ودعا الجبل أن يريه حلماً يبشره بالفرح
ثم اضطجع الصديقان للراحة وسرعان ما أدركهما النوم
فرأى كلكامش رؤيا
ثم استيقظ فقص رؤياه على صديقه وقال:
«يا صديقي من ذا الذي أيقظني إن لم تكن أنت؟
يا صديقي رأيت رؤيا، رأيت أننا نقف في هوة جبل
ثم سقط الجبل فجأة، وكنا أنا وأنت، كأننا ذباب صغار
ورأيت في حلمي الثاني الجبل وهو يسقط
فصدمني وأمسك بقدمي.
ثم انبثق نور وهاج طغى لمعانه وسناه على الأرض فانتشلني من تحت الجبل وسقاني الماء فسرّ قلبي»
فأجاب «أنكيدو» صديقه كلكامش وفسّر رؤياه قائلاً:
«إن رؤياك، يا صاحبي، ذات مغزى حسن وبشرى سارة
إن الجبل الذي سقط عليك هو «خمبابا»، ونحن سنتغلب عليه ونقتله
ثم تسلقا الجبال مرة أخرى ورأى كلكامش رؤيا أخرى
فسرها بأنها بشائر على نجاحهما في لقائهما مع العفريت «خمبابا»

ودنت ساعة اللقاء الحاسمة لما بدأ كلكامش يقطع أشجار الأرز بفأسه، إذ سمع «خمبابا» الصوت
فغضب وهاج وزمجر صائحاً، «من الداخل المتطفل
الذي كدّر صفو الغابة وأشجارها الباسقة في جبلي
ومن ذا الذي قطع أشجار الأرز؟
وتهيأ خمبابا للهجوم على الصديقين اللذين استحوذ عليهما الرعب وندما على المغامرة ودخول غابة الأرز
وأخذا يتضرعان إلى الإله (شمش) ليعينهما على الخلاص من الهلاك
فاستجاب لهما الإله، وانقلبت الآية.
حيث أهاج «شمش» الرياح العاتية وساقها على «خمبابا»
فأمسكت به وشلّت حركته فاستسلم لهما
وأخذ يتضرع لهما أن يبقيا عليه ويأسراه فيكون خادماً لكلكامش ويجعل الغابة المسحورة وأشجارها ملك يديه .
فرقّ قلب كلكامش وكاد أن يبقي عليه
ولكن صديقه «أنكيدو» حرّضه على قتله
فقتلاه وقطعا رأسه
وتنتهي مغامرة غابة الأرز بنجاح البطلين وعودتهما إلى «أوروك».

ذكرنا ـ إذن ـ النص الكامل من ملحمة كلكامش والخاص بـ«لبنان» رغبة منا في بسط الموضوع أمام القارئ الكريم الذي ربما لم يطلع أبداً على هذا النص. فبالإضافة إلى المكانة المعنوية العالية التي تحتلها «ملحمة كلكامش» في تاريخ الأدب العالمي، وما تمثله من قيم فكرية، أخلاقية وإنسانية، فإن لها أهمية كبيرة بالنسبة إلى لبنان ومن نواح عدّة أهمها:

1 ـ إنها تورد اسم «لبنان» لأول مرة في التاريخ في نصّ مكتوب إذا اعتبرنا أن هذه الملحمة السومرية قد دوّنت في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، وإن لم نعثر إلاّ على أجزاء قليلة منها، وتثبت بالتالي أن هذا الاسم قد يكون الأقدم بين الأسماء الحالية لدول العالم.

2 ـ إنها تشهد عن تلازم ذكر لبنان منذ أقدم العصور مع ذكر الأرز في أجمل وصف له، وتؤكد على أهمية ثروة لبنان من الخشب الثمين والذي ارتبط الحصول عليه بفكرة العمران والازدهار.

3 ـ تؤكد الملحمة على طموح ابن الرافدين في الاستكشاف والمغامرة التي حملت كلكامش للمضي إلى أبعد الحدود متحدياً الزمن والمكان، لا يقف أمامه كل العراقيل

الطبيعية والبشرية طلباً للخلود وخدمة الإله في سبيل تشييد أضخم وأفخم معبد له إقراراً بعظمته، كيف لا والإنسان العراقي يحمل بين جنبيه نفساً مغامرة وقلباً يخفق بالحضارة حتى دفعه إلى طلب الخلود والبحث عنه كما فعل كلكامش بعد قتله «خمبابا» وموت صديقه «أنكيدو».

علاقات لبنان مع وادي الرافدين

قد نشأت علاقات وطيدة وقديمة بين حضارات وادي الرافدين وشعوبها تؤكد لنا مدى عمقها وتبادلها سيما التجارية منها والفنية، وسبب ذلك أن لبنان كان نقطة إرتكاز للسلطات العراقية القديمة السومرية منها والاكدية، والبابلية والآشورية، والكلدانية سيما حينما كان يتخذ ملوك العراق القدماء من لبنان موقعاً استراتيجياً للهجوم على الدويلات الآرامية المتمردة في بلاد الشام ودولة مصر التي كانت تغذي تلك التمردات وتثيرها بين آونة وأخرى سيما صور وصيدا وجبيل، وبالأخص دولة إسرائيل ودولة يهوذا، فكان جبل لبنان قاعدة عسكرية عراقية بمصطلح اليوم.

وعليه سوف نمرّ على تلك العلاقات مروراً متسلسلاً عبر مراحل تاريخ الشرق القديم.

أولاً: السومريون

ظهر السومريون حوالي الألف الرابع قبل الميلاد في بلاد النهرين (العراق) السفلى. وتجمعوا في مدن أور وأريدو وأوروك ولكش وأومّا وشوروباك. وكان رؤساء هذه المدن يسعون إلى

الهيمنة على بلاد سومر وإلى الحصول على لقب «لوكال»[1] أي الملك. وفي حال عدم تمكنهم من بلوغ هذه الرتبة كان يُطلق عليهم لقب «انزي» أي وكيل الإله المجلي.

كانت الديانة السومرية غنية بالمراسم السحرية. وكان لكل مدينة إله يحكمها وإلى جانبه قرينته. وكانت المعابد تحتل المكانة الأولى قبل القصور، وهي عبارة عن مجموعة واسعة من الأبنية تشرف على الزقورة. وكانت هذه المعابد هي المركز الاقتصادي لكل إمارة «دويلة المدينة».

نقل السومريون حضارتهم إلى جيرانهم، وبصورة خاصة إلى الاكديين الذين اختلطوا بهم في بلاد ما بين النهرين السفلى، وكان الاكديين يشكّلون غالبية السكان في الشمال (بلاد اكّد) وأقلية في الجنوب (بلاد سومر).

أوجد السومريون حضارة في بلاد ما بين النهرين السفلى ونمّوا هذه الحضارة ما بين الألفين الخامس والثالث قبل الميلاد. وهم وإن لم يكونوا أوّل من سكن المنطقة فقد اخترعوا الكتابة المعروفة بالخط المسماري الذي عمّ منطقة الشرق الأدنى جميعها حتى نهاية الألف الأول قبل الميلاد. وكان لهم إنتاج فني رائع ومستمر، تشهد بذلك التماثيل والأختام. وقد

(1) لوكال: أي الرجل العظيم، الضخم.

استعملوا في البناء الطوب المشوي أو العادي ولم يستعملوا الحجر إلاّ للنقش.

استعمل السومريون النحاس والذهب والفضة ومن ثمّ البرونز وكانوا يعمدون إلى نحت التماثيل الخشبية ويغلفونها برقائق المعدن. وقد عُثر على آنية من الذهب في مقابر الملوك في أور. وعثر كذلك على حُلي وأدوات للزينة وأسلحة. وقد عرف السومريون كذلك في تنزيل قطع من العظم أو العاج في ألواح من القار.

وعليه، كان السومريون وهم الشعب الذي أبدع حضارة وادي نهر دجلة والفرات ـ كما أشرنا أعلاه ـ في الألف الخامس قبل الميلاد، وبذلك يعتبرون أهم جماعة حضارية في غربي آسيا كلها، بل أقدمها وأعرقها، وأصبحت الكتابة المسمارية التي اخترعوها، والأفكار الدينية والروحية التي طوروها، والآداب التي أنشأوها، جزءاً من تراث الإنسان العراقي والسوري، إضافة إلى الآرامي والفينيقي والعبراني وذلك بواسطة خلفائهم الاكديين مروراً بالبابليين والآشوريين.

وصارت اللغة البابلية، برموزها المسمارية الوسيلة الدولية الوحيدة للمراسلات الدبلوماسية والتجارية في كل غربي آسية. ودخلت قصص بلاد الرافدين وأساطيره المتعلقة بآلهتهم، ومنها

قصة الخلق (اينوما ايليش)[1] والطوفان (ملحمة كلكامش)[2] في الأدب الفينيقي (الكنعاني)، وتحولت هذه القصص على يد كُتّاب العهد القديم (التوراة)، إلى قطع أدبية تعتبر من أجمل الروائع الأدبية التي عرفها الإنسان إلى حدّ اليوم. واستعارت سورية ولبنان عدداً كبيراً من الكلمات الاكدية[3]، بالإضافة إلى الكلمات السومرية أثناء هذه الفترة[4].

---

(1) اينوما ايليش، هي قصة الخلقة البشرية، تعتبر أقدم قصيدة ظهرت في التاريخ، وتعتبر سفر التكوين العراقي الذي أثر في سفر التكوين التوراتي، قد نشرنا نصّها في كتابنا «التوراة البابلية» دار نشر الفرات (2003) بيروت، ص330 ـ 418.

(2) ملحمة كلكامش، قصيدة شعرية وضعها شاعر سومري حوالي الألف الثالث قبل الميلاد تحكي لنا قصة الإنسان السومري. شخصية الملك السومري كلكامش الذي فتش عن سرّ الخلود وعثر عليه، إلا أنه فقده في اللحظة الأخيرة، اقتبس منها الكاتب اليهودي قصة الطوفان خاصة وأدخلها إلى سفر التكوين التوراتي.

(3) وهي لغة بابل وآشور، وسميت كذلك باسم اكد شمالي مدينة بابل، ووردت في سفر التكوين: «فأما كوش فأولد نمرود، وهو ابتدأ أن يكون جباراً على الأرض. وكان جباراً قانصاً أمام الرب، ومن أجل ذلك يقال مثلاً: كنمرود جبار صيد أمام الرب. وكان ابتداء ملكه بابل وأرك واكد وكلْنة في أرض شنعار» (10: 8 ـ 10).

(4) ومن هذه الكلمات: (هيكل) التي أتت مباشرة من السومرية (e-gal) بمعنى البيت الكبير إلى الكنعانية. وتوجد أسماء متعددة للنباتات والمعادن من أصل آشوري بابلي، أدخلت بطريق الفينيقية واليونانية إلى اللغات الأجنبية مثل Carob (الخرّوب) Cassia (القثاء الهندي) chicory (الهندباء) crocus (الكركم) gypsum (الجبس، الجص) hyssop (الحشيشة، الزوفاء) Jasper (اليشب) mandrake (تفاح الجن) naphths (النفط)

كانت بلاد الرافدين تشكّل الأراضي الداخلية التي تقع فيما وراء سورية ومنطقة حلب خاصة كانت تستعمل كطريق تجاري تمر فيه معادن كيليكية[1] الخام إلى إمبراطورية بلاد النهرين (العراق) وكانت كميات الفضة والذهب التي وجدت في قبور مدينة أور الملكية (حوالي عام 2700 ق.م) تمر غالباً بهذه الطريق. وكان جوديا الملك[2] (حوالي العام 2350 ق.م) أمير لكش[3] Lagash السومري يحصل على شجر الأرز من

---

nard (الناردين) sattron (الزعفران) sesame (السمسم). وكلمة «نجار» العربية أتت من naggaru السومرية الاكدية، وكلمة «لوح» أتت من It'u الاكدية.

(1) كيليكية أو قيليقية، منطقة في تركيا الآسيوية جنوب شرقي الأناضول على البحر المتوسط. عُرفت قديماً بأرمينية الصغرى. من مدنها أدنه وطرطوس، كانت مملكة مستقلة في العهد الصليبي.

(2) جوديا: حاكم مدينة لكش (نحو 2144 ـ 2124 ق.م). أضفى على هذه المدينة رونقاً كان فاتحة للمرحلة السومرية الجديدة المميزة بانطلاقة في جميع مجالات الفن والفكر. عُثر على زهاء خمسة عشر تمثالاً لهذا الملك، منها اثنا عشر تمثالاً في متحف اللوفر ـ باريس، وهذه التماثيل منحوتة في حجر من الديوريت الأخضر الغامق، وتمثل جوديا واقفاً أو جالساً. وعلى التماثيل كتابة مسمارية تذكر اسم الملك وإهداء التمثال إلى أحد الآلهة. وهي محطمة منذ الأزمنة القديمة ورؤوسها مقطوعة. وقد عثر على رؤوس هذه التماثيل بصورة سالمة تغطيها عمامة صوفية.

(3) لكش: مدينة سومرية تقع على بعد عشرين كيلومتراً شمال شرق «تللو» اسمها الحالي «الحبة» قرب ملتقى دجلة والفرات. سيطرت على بلاد ما بين النهرين في القرنين الخامس والعشرين والرابع والعشرين ق.م وقامت فيها سلالات ملكية. وكانت في نزاع

جبال الأمانوس[1] بالإضافة إلى الذهب من كيليكية. وتجار بلاد ما بين النهرين الذين كانوا يبحثون عن هذا الخشب المرغوب فيه قد اكتشفوا المرتفعات المكسوّة بالغابات في جبال سورية الشمالية (جبال لبنان) حتى قبل ذلك العهد.

ثانياً: الاكديون

الاكديون شعب سكن في وسط بلاد ما بين النهرين (العراق) مجاورين لبلاد سومر، وقد أصبحت هذه الأخيرة تابعة لها، اعتباراً من حكم سرجون الاكدي. وقد أطلقت تسمية بلاد اكّد لاحقاً على بلاد بابل. وظلّت اكد تشكل كياناً مستقلاً عن سومر، رغم اتحادها مع هذه الأخيرة وذلك طيلة المدّة السابقة للمرحلة الفارسية، وكان أمراؤها يحملون لقب «ملك سومر واكّد» وظلت تحافظ على مركزها المرموق، حتى ظهر في العام 2150 قبل الميلاد شعب جاء من الجبال الشمالية الشرقية هم: الجوتيون الذين وضعوا حداً لسيطرة اكّد السياسية والاقتصادية والثقافية.

مع مدينة أوما. جرى فيها الحفريات التنقيبية منذ العام 1877، كشفت عن حضارة متقدمة، منها تماثيل مشهورة لجوديا.

(1) الامانوس (أمانوس) سلسلة جبال تركية شرقي خليج اسكندرونة تشرف على سهل كيليكية. هي اليوم قِزِل داغ، ارتفاعها 2620م تغطيها غابات الأخشاب.

يرتبط الفن الاكدي زمنياً بمرحلة سيادة السلالة الاكدية. وقد عُثر في نينوى على رأس نحاسي لرجل، هو الأثر الوحيد من هذا الفن الذي اكتشف في بلاد ما بين النهرين. أما سائر الآثار الاكدية الأخرى فقد عُثِر عليها في مدينة سوسة عاصمة عيلام، ويبدو أنها نُقلت إلى هذه المدينة قرابة العام 1200 قبل الميلاد كغنائم حربية. ومن هذه الآثار مسلّة حمورابي القانونية الموجودة حالياً في متحف اللوفر في باريس ومسلّة منيشتوسو ونصب شاركالي شاري. ويمتاز الفن الاكدي عن الفن السومري بأناقته وتوازنه ووضوحه وقد تأثر بالفن السومري الحديث والفن البابلي.

تعتبر اللغة الاكدية، هي أقدم اللغات السامية الشرقية. تكلّم بها الساميون القدامى في بلاد ما بين النهرين، وانتقلت من ثم إلى جميع مناطق النفوذ الآشوري والبابلي. واستمرت خلال أجيال طويلة، تشكّل اللغة الدبلوماسية والثقافية في الشرق الأدنى ومصر. وقد عُثر على وثائق بالخط المسماري الاكدي يعود تاريخها إلى قرابة العام 2400 ق.م. ولا ريب في أنّ هذه اللغة كانت محكية في زمن أقدم، وقبل توصّل السومريين إلى اختراع الكتابة حوالي العام 3500 ق.م.

حافظت اللغة الاكدية على نوعيتها واستقرارها طيلة قرنين تليا بداية مرحلتها الكتابية، وتعرف هذه اللغة في المرحلة

المذكورة بالاكدية القديمة. وانقسمت من ثم إلى لهجتين: الآشورية والبابلية. واللغة الاكدية لغة معرّبة أي أنها خاضعة لقواعد الإعراب كاللغة العربية، وتحتوي على جميع مميزات اللغة السامية، ولاسيما على صعيد الأصوات الكلامية، والحروف المفخّمة والبنية القائمة على الحروف الصوامت، والمكوّنة على الغالب من جذور ثلاثية.

إلا أن الاكدية، بمجاورتها للسومرية، استعارت من هذه الأخيرة العديد من المفردات، وفقدت عدداً من أحرف الحلْق وأهملت المسند إليه في نهاية الجمل الفعلية، كما تبنّت طرقاً غير سامية، في اشتقاق الاسم. وقد انتهى بها الأمر إلى التأثر باللغة الآرامية المحلية التي حلّت مكانها، في نهاية القرن السادس قبل الميلاد. علماً بأنها استمرت لغة علمية ودينية حتى العهد المسيحي.

أما عن العلاقة بين اكّد ولبنان، فإن سورية الشمالية بما فيها لبنان، خضعت للحكم البابلي الاكدي (في النصف الثاني للألف الثالث قبل الميلاد) حيث يذكر لنا التاريخ، أن سرجون الأول الاكدي[1] (حوالي 2250 قبل الميلاد) وهو فاتح كبير في

(1) سرجون الاكدي: ويعرف كذلك باسم شاروكين، ملك فاتح (2334 ـ 2279 ق.م) مؤسس السلالة الاكدية. تقول الأسطورة أن ولادته جرت سرّاً وأنه وضع في سلسلة مدهونة بالقار على الفرات وانتشله متولي شؤون الريّ ورباه كابن له. وتقول

التاريخ، إنه «الملك» كما يقول لنا في النقوش التي خلّفها «من البحر الأعلى إلى البحر الأسفل»[1] وتشمل هذه المنطقة «غابات الأرز وجبال الفضة». كما أنه هو أول شخصية في التاريخ قد «غسل أسلحته في البحر»[2] كما جاء في أحد النصوص وادّعى السيطرة على جبال الأرز.

رواية أخرى أنه كان في نشأته بستانياً ثم عمل بصفة ساقي لدى ملك كيش «أورزبابا». انتصر سرجون على لوكال زاكيزي ملك أوما وسيد سومر واستولى على أوروك، ودمّر أسوارها وأسر لوكال زاكيزي المذكور واقتاده مكبلاً بالأغلال أمام انليل إله سومر لكي يوافق هذا الإله على خلع القديم ومنح سرجون لقب ايشاكو سحق من ثم قوات أو وهدم أسوارها واستولى على لكش، ووصل إلى الخليج العربي. وأكمل في طريق عودته فتح بلاد سومر فاستولى على أوما ودمّر أسوارها. وأصبح سيّد المنطقة من البحر الأعلى (البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأدنى (الخليج العربي) إذ امتدت سلطته غرباً على ماري وإيبلا وغابة الأرز وجبال الفضة (طوروس) بنى سرجون مدينة اغارة، أو أعاد بناءها، وجعل منها عاصمة له. إلا أن موقع هذه المدينة لم يجر تحديده بعد. حدثت في آخر أيامه فتنة عامة. وقد عاونت «سوبارتو» الثوار فهزمت. وشاركت بابل في الثورة وهُزمت كذلك. وتجدر الملاحظة هنا أن اسم بابل ذُكر في هذه المناسبة لأول مرة في التاريخ.

(1) المقصود هنا بـ«البحر الأعلى» البحر الأبيض المتوسط، و«البحر الأسفل» البحر العربي أو الخليج العربي جنوب العراق ومن المعلوم أن البحر المتوسط غربي لبنان كان يسمى آنذاك باسم «بحر آمورو».

(2) يقصد بالبحر هنا «بحر أمورو» (البحر المتوسط) راجع حِتّي، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة الدكتور أنيسة فريحة، دار الثقافة ـ بيروت ـ ص172 ـ 173.

وكذلك خليفته نرام سين[1] (حوالي 2170 ق.م) حيث حكم الأرض كلها بما في ذلك «غابات الأرز»[2]. ومنذئذ أصبح من مبادئ سياسة حكام بلاد الرافدين أن يتوسعوا غرباً لكي يقبضوا على نهايات الطرق التجارية، حيث إن الضغط السياسي والعسكري الحقيقي على فينيقيا (لبنان) لم يبد خطيراً إلا بعد أن أخذ ظل مصر السياسي، وقوّة الحثيين يتقلصان رويداً رويداً، وبعد أن أخذت تظهر أخيراً في الأفق الشرقي قوة عسكرية جديدة (الآشوريون) فإن مخطط سياستهم الرامية إلى الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط، والهادفة إلى السيطرة على طرق التجارية المؤدية إلى هذا البحر - كما أشرنا - لم يوضع موضع التنفيذ إلا بعد أن بلغت الدولة

(1) نرام سِن: ملك اكّد (2255 ـ 2220 ق.م)، حفيد سرجون الاكدي لُقّب بملك المناطق الأربع وإله إجادة. امتدت سلطة هذا الملك من الخليج العربي إلى آسيا الصغرى. دَمّر مدينة إيبلا في سورية وحصّن حدوده الشمالية (حصن تل براك) وانتصر على العيلاميين والجوتيين واللولوبيين والآراميين. اكتُشِفت له مسلذة في سوسة حيث جرى نقلها إلى هذه المدينة في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد كغنيمة حربية. هذه المسلّة موجودة حالياً في متحف اللوفر. وهي تخلّد انتصار الملك على أحد شعوب الجبل. ويظهر فيها نرام سن على صورة إله يصعد جبلاً على رؤوس جيشه ويدوس برجليه على أعدائه. وقد أزيل جزء من الكتابة الواردة في هذه المسلّة وعُوّض عنه بنص يذكر المغتصب العيلامي.

(2) فيليب حِتّي، المصدر نفسه ص173.

الآشورية الإمبراطورية مبلغاً من القوة العسكرية تستطيع معه تنفيذ هذه السياسة.

ثالثاً: الآشوريون

تقع بلاد آشور في القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين، بين نهري دجلة والفرات، ممتدة على كامل حوض الموصل شمالاً وحتى الحدود الإيرانية شرقاً. مدنها الرئيسية آشور (شرقاط) وكالاح (النمرود) نينوى ودور شوروكين (خرساباد) وبلاباذ (بلوات)... وغيرها، وقد تغيّرت حدودها السياسية مع تغيّر المراحل التاريخية.

يرقى تاريخ بلاد آشور إلى العصور القديمة، وكان الملك الكاهن الآشوري «زاريقوم» معاصراً للملك برسين من سلالة أور الثالثة.

ظهرت في القرن التاسع عشر قبل الميلاد سلالة اكدية أسسها ايلوشوما (2104 ـ 2088 ق.م وفق التقويم القديم)، حكمت بلاد آشور، وامتدت تجارة آشور خلال حكم هذه السلالة إلى تخوم بلاد الحثيين. وقد استقرت جالية آشورية في مدينة كانش (كل تبه) أيام الملك شاروكين (سرجون الأول) وهو من أحفاد ايلوشوما، وحكمت آشور في القرن الثامن عشر قبل الميلاد سلالة عمورّية أسسها شمسي أدد الأول المعاصر

لحمورابي. وفي حكم هذه السلالة تجاوزت بلاد آشور حدود الفرات.

تقلّصت الهيمنة الآشورية، من ثمَّ لعدَّة قرون، نتيجة تغلغل الحثيين في بلاد ما بين النهرين. وأصبحت آشور في القرن الخامس عشر قبل الميلاد تابعة للمتّانيين ولم تستعد استقلالها إلا في منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد، إثر انكسار المتانيين أمام الحثيين.

برز، من ثم، الملك آشور أوباليّت[1] (1363 ـ 1328 ق.م) ففرض حمايته على المتانيين وعقد معاهدة تحالف مع الملك البابلي برنبو رياش. وقام بعده الملك توكولتي نينورتا الأول[2]

---

(1) آشور أوباليّت الأول: ملك آشور (1366 ـ 1330 ق.م) حرّر بلاده من هيمنة الميتانيين بصورة نهائية. وأوصل آشور إلى مصاف أقوى دول الشرق. عقد تحالفاً مع بورنابور بورياش الثاني ملك بابل.

(2) توكولتي نينورتا الأول: ملك آشور (حوالي 1244 ـ 1208 ق.م) قام منذ السنة الأولى من حكمه بغزو الأراضي الواقعة إلى الشمال، والشمال الشرقي من آشور وهو (قوتو) و(شوباري). ثم نهب وأخضع الأقاليم الواقعة إلى الشمال الغربي حتى كوماجين. واضطر أربعون ملكاً صغيراً في هذه البلاد أن يعترفوا بسيادته ودفع الجزية له. استدار توكولتي نينورتا من نحو بابل حيث حكم مدة سبع سنوات وسبى تمثال مردوخ. ومدّ غزواته حتى الخليج العربي وابتنى هناك مدينة سماها على اسمه: «كارتوكولتي نينورتا» وزوّد هذه المدينة بالماء بواسطة قناة وبنى فيها معبداً للإله آشور وقصراً لنفسه. اغتيل توكولتي نينورتا في مدينته أثناء فتنة أثارها ابنه آشور نادين ابلا الأول.

(1243 ـ 1207 ق.م) بإخضاع بابل، إلا أن الهيمنة الآشورية عادت فتقلصت من جديد.

بدأ التوسع الآشوري الكبير مع حكم تغلات بلاصر الأول (1112 ــ 1074 ق.م) الذي أسس الإمبراطورية الجديدة. ووصلت جيوشه إلى البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط. إلا أن خلفاءه لم يتمكنوا من الحفاظ على وحدة هذه الإمبراطورية الكبيرة التي لم يتمّ تنظيمها فعلياً إلا في حكم أدد نيراري الثاني (911 ـ 891 ق.م) وحفيده آشور ناصربال الثاني (883 ـ 859 ق.م)، وأصبحت البلدان الخاضعة تعيش في خوف مستمر. فإن الملوك الآشوريين، كانوا ينظمون حملات سنوية تخشاها البلدان التابعة، فتسارع إلى تقديم الجزية والهدايا لتجنيب أراضيها خطر الاجتياح.

وعليه لابد من التفاصيل بهذه الفترة لبيان مكانة لبنان في ذاكرة العراق القديم وكالآتي:

فينيقيا وآشور في ذاكرة التاريخ

تدلّ مختلف الوقائع على أن انهيار الحكم المصري الذي دامت سيطرته على المنطقة قروناً قد حصل في حوالي العام 1100 قبل الميلاد.

في هذه الحقبة عاد الآشوريون إلى التوسع المطّرد في الشرق الأدنى القديم، وراحت فينيقيا (لبنان) تفقد استقلالها.

ولكي يحقق الآشوريون إمبراطوريتهم الكبيرة، كان لابد أن يكون لهم منفذ إلى البحر، لذلك سعوا إلى الاستيلاء على لبنان وعلى مدنه الساحلية (المرافئ) المزدهرة، وخصوصاً صور وصيدا، متبعين في ذلك سياسة أسلافهم الاكديين. وكان هؤلاء قد بادروا منذ الربع الأخير للألف الثالث قبل الميلاد، إلى بسط سيطرتهم على كل المنطقة الواقعة بين «البحر الأعلى والبحر الأدنى» أي من الخليج العربي إلى البحر الأبيض المتوسط (بمصطلح اليوم) بما في ذلك لبنان و«غابات أرزه» كما يذكر سرجون الاكدي (نحو 2250 ق.م) أول فاتح في التاريخ، في أحد النصوص التي خلفها - سبق وأشرنا إليه ..

وأول ملك آشوري يقصد فينيقيا ويستولي عليها هو الملك الآشوري (شمشي - أدد الأول»[1] (1816 - 1783 ق.م) هو الوحيد بين أوائل ملوك الآشوريين، الذي وصلتنا عنه بعض المعلومات التاريخية التي يبدو من خلالها أنه واصل السياسة التوسعية نحو الغرب التي باشرها أسلافه حكام بلاد ما بين النهرين، ووصل إلى لبنان وأقام نصباً له على شاطئ البحر.

وفي النص الآشوري الأول الذي يرد فيه اسم لبنان منقوشاً على لوح حجري بالكتابة المسمارية، يتباهى شمشي - أدد الأول بأنه وصل إلى شاطئ «البحر الكبير» حيث أقام نصباً له في أرض لَبان[2]. جاء فيه:

(1) شمشي أدد الأول: ملك آشور (1814 - 1782 ق.م) كان يحكم مدينة ترقة على الفرات الأوسط، وذلك بعد انقراض سلالة أور الثالثة. استولى على عرش آشور، وجعل منها دولة قوية قادرة على التدخل في شؤون بابل، واغتال يهدون - ليم ملك مدينة ماري لينصّب مكانه ابنه هو «يسمح - أدّو» الذي لم يكن يتمتع بأية جدارة ويعتبر شمشي - أدد الأول مؤسس السلالة الآشورية العمورية (الآمورية) وقد شهدت بلاد آشور مرحلة تراجع طويلة بعد وفاته.

(2) وقد نشر هذا النص مستر شميدت ونقله وترجمه ميسنر. أما الترجمة العربية فمأخوذة عن ترجمة فرنسية وردت في مقال «Revue Biblige» (راجع د. انطون حرب، لبنان جدلية الاسم والكيان عبر 4000 سنة، منشورات «مؤسسة التراث اللبناني» الطبعة العربية الأولى (2000) ص36.

«نصبت اسمي العظيم، وسلّتي في أرض «لبان» La-ba-a-an على شاطئ البحر الكبير».

ولاشك في أن «البحر الكبير» هو البحر الأبيض المتوسط، وأن «لبان» هو لبنان[1].

(1) إن العادة عند الملوك الأقدمين كانت إقامة أنصاب وسجلات لفتوحاتهم على صخور لبنان، عند شاطئ البحر الأبيض المتوسط وهذا الأمر لا يحتاج إلى إثبات، وخير دليل على تلك العادة النقوش المنحوتة على صخور نهر الكلب حدّ مصبه في البحر، والماثلة إلى هذا اليوم.

الملك تقلات بلاصّر الأول
(1114 ـ 1076 ق.م)

في المرحلة الممتدة بين القرنين العشرين والقرن الثاني عشر قبل الميلاد، بقي الصراع على النفوذ محتدماً بين الآشوريين وجيرانهم البابليين والحثيين والميتانيين والآراميين... وتفاوتت سلطة الآشوريين على بلاد ما بين النهرين بين مدّ وجزر وقوة وضعف.

وعلى أثر قضاء شعوب البحر (ومنهم الفلسطو) الآتين من الشمال على الإمبراطورية الحثية (نحو سنة 1200 ق.م) وانحسار النفوذ المصري عن الشرق. وجد الآشوريون الفرصة سانحة للتوسع في اتجاه الغرب.

في هذه الحقبة قاد الملك الآشوري تقلات بلاصّر الأول[1] (1112 ـ 1074 ق.م) حملة على سورية العليا وجبى الجزية من أرواد وجبيل وصيدا، بعد أن احتلها.

---

(1) تقلات بلاصّر: ملك آشور (1117 ـ 1077 ق.م) أو (1112 ـ 1074 ق.م) ابن آشور ريش ايشي وخليفته. ضم الـ«كوماجين» إلى إمبراطوريته وفرض الجزية على العديد من الملوك غربي الفرات، وفي منطقة بحيرة وان بأرمينيا. أدخل إلى آشور عدداً كبيراً من

يقول هذا الملك الآشوري في كتاباته التي خلّفها:

«إلى جبل لبنان ذهبت،

«جذوع الأرز لمعبد آنو وحدد، الإلهين العظيمين، ربّي،

«قطعت ونقلت، إلى أمورو عدت أمورو،

«بكاملها غزوت، الجزية من جبيل وصيدا،

«وأرواد استلمت، عبرت بسفن أرواد،

«من أرواد القائمة عند شاطئ البحر إلى،

«حيث سيميرا في بلاد أمورو.. قتلت

«نهيرو الذي يسمونه فرس البحر في عباب اليم»[1].

واضح من هذه الرواية أن الغرض من حملة تقلات بلاصّر الأول هو الحصول على خشب الأرز، إذ لا يرد ذكر لمعركة. أما «الغزو» و«الجزية» فالاصطلاحان قد يستعملان للدلالة على رابطة تجارية. وأما قتل الدلفين فيشعرنا برحلة صيد سمك نظمتها المدن الفينيقية، تكريماً لضيفهم العظيم. ثم إن الوضع السياسي في ذلك الزمان ما كان ليسمح لتقلات بلاصّر الأول بأن يحتفظ بسيطرته على سورية مدة طويلة، بينما تثبت حروبه

الماعز والخيول حصل عليها بمثابة جزية من أهالي الجبال، وحاول أن يؤقلم في بلده نباتات البلدان التي فتحها) Daniel D. Luckenbill.

(1) Ancient Records of Assyria and Babylonis Vol.1 (Chicago, 1926) sec 302.

مع الولايات الواقعة شمال نهر دجلة العليا والقبائل الآرامية الآتية من الحدود الغربية أنه لم يكن يومئذ يسيطر على الطرق المؤدية إلى سورية.

ولدينا دليل آخر وهو دليل هام، على استقلال الدويلات الفينيقية - وخصوصاً عن مصر - وهو حكاية «وينامون» تروي لنا هذه الحكاية الاستقبال المهين الذي استقبل به أمير جبيل موفد حاكم مصر الذي أرسله هذا الأخير للحصول على خشب الأرز يصنعون منه القارب المقدس للإله آمون. فيقول الأمير الفينيقي مشيراً إلى حاكم مصر: «ولا أنا خادم لمن أرسلك».

كذلك نجد في جبيل، في القرن العاشر، نقوشاً وجيزة تشتمل على أسماء الحكام الذين تعاقبوا على حكم المدينة وهم:

حوالي 1000 ق.م أحيرام

980 ق.م إتو بعل

940 ق.م أبيبعل

920 ق.م يحيميليك

900 ق.م ايليبعل

880 ق.م شيبغتيبعل.

والنقش الخاص بأحيرام محفور على تابوته، أما النقوش الأخرى، فعبارات تدشين نجدها على مبان أو تماثيل أضيفت إلى تعاويذ تلتمس الحماية من الآلهة. أحدهما لأبيبَعْل والآخر لايليبعل كان نقشهما على تمثالين مصريين، أحدهما لششنوق الأول (950 ـ 929 ق.م) والثاني لأوسركون الأول (929 ـ 893 ق.م) ترتيباً. أما تابوت أحيرام الذي يحمل أقدم النقوش فيجب أن يكون أقدم بقرنين، وربما كان النقش نتيجة لمزيد من الاستعمال. على هذا يمكن ترميم تعاقب هؤلاء الحكام وأزمنتهم.

كان الفلسطينيون والعبرانيون الأعداء المباشرين لتوسع المدن الفينيقية في المنطقة. عن علاقتهم مع الأولين لا نملك شيئاً سوى تدمير مدينة صيدا على أيدي العسقلانيين. وعن علاقتهم مع العبرانيين يمدنا كتاب «العهد القديم» بمعلومات وافية أثبتت صحتها حوليات صور. ومن الممكن أن يكون داود (حوالي 1000 ـ 961 ق.م) قد ضمّ جزءاً كبيراً من الساحل الفينيقي عندما وسّع دولته: على الأقل، الرواية الكتابية على الإحصاء السكاني الذي أمر به الملك، تحكي أن مبعوثيه أتوا إلى جلعاد وإلى أرض تحتيم وحُدْشي ثم أتوا إلى دان يعن واستداروا إلى صيدون. ثم أتوا إلى حصن صور وجميع مدن الحوّيين

والكنعانيين ثم خرجوا إلى جنوبي يهوذا إلى بئر سبع (صموئيل الثاني 24: 6 ــ 7).

واضح أن هذا المقطع قد يُفسّر على أوجه مختلفة والنص غير يقيني، لكنه مع ذلك يعطينا فكرة عن امتداد دولة داود. أما صور فكانت أكبر المدن الفينيقية. فقد ظلت مستقلة، كما تشعرنا بذلك رواية الملك حيرام الذي أرسل إلى داود الصُنّاع وخشب الأرز لكي يبنوا له قصره[1].

وفي العودة إلى تقلات بلاصّر فإنه أثناء زحفه نحو الغرب، غزا سورية الكبرى عام 1094 قبل الميلاد وأعلن نفسه فاتح أمورو بكاملها. وبعد أن اجتاز جبال طوروس إلى بلاد الحثيين حصل على ولاء جبيل وأرواد وصيدا وغيرها من المدن الفينيقية كوريث للحثيين في سيطرتهم على سورية. وربما كانت جبيل لا تزال تحت حكم زكر ـ بعل. وقطع الفاتح أخشاب الأرز وأرسلها إلى بلاده لأجل هيكل آلهته. وفي سميرا ركب «بحر آمور العظيم» إلى البرّ وقتل بطريقه «حصان البحر» أو درفيلاً[2].

وقد اصطاد عدد من حكام بلاد الرافدين الثور البري في جبال لبنان.

(1) يجب أن ننتبه إلى أنه لم يكن حتى الآن التثبت من رواية التوراة حول الملك داود وابنه سليمان وحول مملكتهما الواسعة الأرجاء.

(2) فيليب حتّي، المصدر نفسه، ص150.

وقد ورد في نصّ آخر ما نصّه: «أتيت - تقلات بلاصّر - إلى لبنان Lab-na-a-ni قطعت خشب الأرز لهيكل آنو وأدد»[1].

وفي نص آخر:

«بطلب من آنو وأدد، الإلهين الكبيرين سيديّ، أتيت إلى جبال لبنان Lab-na-ni قطعت جذوعاً من الأرز لهيكل آنو وأدد[2]».

بعد تحقيق «رغبة آلهته» بالحصول على خشب الأرز لبناء الهيكل، يعود الملك الآشوري إلى بلاده محمّلاً بأموال الجزية التي جمعها من مدن الساحل الفينيقي جبيل وصيدون وأرواد، بالإضافة إلى غنائم مدن أمورّو الداخلية».

ويبدو أن حملة تقلت بلاصر الأول لم تكن فتحاً بقدر ما كانت استطلاعاً أو غزواً، أو ربما رحلة ملكية استطلاعية، إذ إن المراجع التاريخية لم تذكر أي وجود للآشوريين على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط طوال أكثر من قرنين من الزمن (من حوالي سنة 1100 إلى 900 قبل الميلاد تقريباً) وخلال هذه الفترة عاش اللبنانيون فترة استقرار وطمأنينة واغتنموا هذه الهدنة ليوطدوا وجودهم في حوضي المتوسط

(1) د. انطون حرب، المصدر نفسه، ص70.

(2) د. انطون حرب، المصدر نفسه، ص70.

الشرقي والغربي لينشئوا المستعمرات ويؤسسوا إمبراطورية تجارية عبر البحار قامت على أسس التعاون والتعايش السلمي بين الشعوب وحققوا من الربح المادي والمعنوي ما لم تستطع تحقيقه قوة الحرب والدمار المتمثلة بالإمبراطوريات الكبرى المعاصرة لهم.

إن هذا المُلْك الذي أسسه تقلت بلاصّر من أعالي دجلة عبر الفرات إلى فينيقية لم يدم طويلاً، حيث استولى الغزاة الآراميون على ممتلكات تقلات بلاصّر عبر الفرات بعد مدة وجيزة وكان على عهد أحد خلفائه آشور ناصر بال الثاني[1].

(1) آشور ناصربال الثاني (883 - 859 ق.م) ملك آشوري بنى قصراً في عاصمته كالح. تعتبر نقوشه أقدم مجموعة نحت آشوري. قام بتنظيم أمور الإدارة في الإمبراطورية الآشورية، وشنّ حملاتٍ عسكرية على بلاد الآموريين وقطع الأخشاب من جبال الأمانوس استعملها في بناء قصره.

الملك آشور ناصربال الثاني
(883 ـ 859 ق.م)

في أوائل الألف الأول قبل الميلاد، يعاود ملوك آشور اجتياحهم الأقاليم الغربية، فيرد ذكر اسم لبنان في سجلات فتوحاتهم.

وتعتبر فترة حكم الملك الآشوري آشور ناصربال الثاني، فاتحة عهد من الحملات العسكرية التوسعية لم تنته إلا بسقوط نينوى سنة 612 قبل الميلاد، وهكذا يُعتبر ملكه فاتحة عهد يتميز بإحياء الروح العسكرية السياسية في آشور. وقد سلك هذا الفاتح في زحفه غرباً إلى شمالي سورية سنة 879 قبل الميلاد الطريق ذاتها التي سلكها سلفه، وهي الطريق الطبيعية بين أعالي وادي الرافدين وسورية. ثم تابع زحفه من شمال سورية فدخل لبنان وسار بجيشه جنوباً في محاذاة الشاطئ اللبناني دون أن يلقى مقاومة تذكر. وقد كانت هذه الغزوة الآشورية الأولى الناجحة ضد سورية. وهي تشبه إلى حدّ بعيد

الغزوة التي قام بها قبلاً تحوطمس المصري الثالث[1] بحوالي ستة قرون. وقد دفعت المدن الفينيقية المزدهرة الجزية إلى هذا الفاتح الآشوري مما يدلّ على أنها قبلت بالأمر الواقع لا على أنها أظهرت الخضوع التام للسيطرة الآشورية.

فيعبر آشور ناصربال الثاني الفرات ويحتل كركميش[2]، ثم يتابع زحفه في اتجاه لبنان وهدفه السيطرة على شواطئ المتوسط. وقد خلف لنا هذا الملك نقشاً على بلاط معبد نينورتا في كالح نقرأ عليه ما يلي:

«سرت يومئذ محاذياً جبل لبنان، وطلعت إلى البحر الكبير في بلاد الآموريين. في البحر العظيم غسلت أسلحتي، وقرّبت القرابين للآلهة حيث جبيت الجزية من ملوك الساحل، من أهالي صور وصيدا وجبيل ومايزا ومخالاطا وكايزا وآمورو وأرواد، التي تقع في وسط البحر، ذهباً وفضة ورصاصاً ونحاساً وآنية من برونز وثياباً مصنوعة من صوف ملوّن، وثياباً من

(1) تحوطمس الثالث، فرعون مصر (1483 ـ 1450 ق.م) ابن تحوطمس الثاني. أعاد تنظيم الجيش المصري وشتت تحالف الملوك الآسيويين في معركة مجدّو عام 1483 ق.م وبسط حمايته على فلسطين وفينيقية وسورية بعد سبع عشرة حملة قام بها.

(2) كركميش: مدينة تقع في مخاضة الفرات في نقطة العبور من سورية إلى بلاد ما بين النهرين. تعرف اليوم باسم جرابلس. كانت تابعة قديماً للمتّانيين وقد تكون أصبحت يوماً عاصمة للحوريين الذين انطلقوا منها لفرض سيطرتهم على البلاد المجاورة.

كتان، وحماراً كبيراً، وقرداً صغيراً، وخشب قبقب، وخشب بقس، وعاجاً، ونهيرو، وهو من مخلوقات البحر، كل هذا أخذته جزية منهم، ثم عانقوا قدميّ»[1].

ويبدو من نوعية هذه الضرائب أنها بمثابة «هدايا» وليست ضرائب فتح وحرب يفرضها الغالب على المغلوب[2]. وهي عربون صداقة كتلك التي كان قد أرسلها رعمسيس الحادي عشر إلى تقلت بلاصر الأول عندما وصل هذا الأخير إلى لبنان، وقد تضمنت تماسيح وحيوانات بحرية من نوع حصان البحر،[3] أما خشب غابات لبنان، فقد اعتبره الفاتح الآشوري مشاعاً للإله آشور، يتزوّده بقدر ما يشاء ولا يدخل ضمن حساباته الضرائبية.

في نص آخر يذكر آشور ناصربال الثاني مجيئه إلى لبنان وحصوله على خشب الأرز والشربين: «إلى جبل لبنان Lab-na-na ذهبتُ، وألواحاً من الأرز والشربين... قطعتُ[4]».

(1) فيليب حتى، المصدر نفسه، ص174.

(2) يوسف الحوراني، لبنان في قيم تاريخه، دار المشرق، بيروت 1986، ص148.

(3) ادي شير، تاريخ كلدو وآشور، نشر المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1912، الجزء الأول، الكتاب 3، باب 2، فصل 3.

(4) انطون حرب، المصدر نفسه، ص71.

لعل تاريخ هذه الحملة يرجع إلى حوالي سنة 875 قبل الميلاد، ويظهر أن المدن الفينيقية لم تبد مقاومة مسلحة، إذ لا يرد في الحوليات الآشورية ذكر لقتال، ولعل هذا كان طابع السياسة التقليدية التي كانت تنتهجها الدول الصغيرة تجاه جاراتها من الدول القوية، إذ كانت تؤثر أن ترضي هذه الأخيرة عن طريق تقديم آيات الولاء ودفع الجزية. غير أن هذه الحملة تختلف عن حملة تقلات فلاصّر الأول من حيث أن هذه الأخيرة كانت ترمي إلى إخضاع الملوك المحليين. أما المدن المذكورة فبعضها معروف مثل صور وصيدا وجبيل وأرواد، بينما المدن الأخرى مثل مخالاطا ومايزا وكايزا غير معروفة. وكل محاولة تبغي التعرف عليها تبقى مسألة نظرية (وقد تكون مخالاطا هي طرابلس الحالية).

أما عمورو (آمورو) فلابد أنها كانت إقليماً، ولا محل لها في هذه القائمة من المدن، ومن الممكن أن تكون اسماً آخر لمدينة سيميرا.

ولعل من الممتع أن نعود ثانية لنتفحص الثروات التي قدمتها المدن الفينيقية جزية لملوك آشور. فالثياب المصنوعة من الصوف الملوّن تشعرنا بالصناعة المحلية الشهيرة التي تقوم على صبغ الملابس باللون الأرجواني، والصناعة الأخرى التي لابد أن

كانت صناعة محلية أيضاً هي صناعة الخشب والبرونز والعاج. أما الثياب الكتانية والذهب والقردة، فمن مصر. أما المعادن الأخرى كالنحاس فمن قبرص، ثم إن القائمة، التي اشتملت عليها الجزية، دليل هام على النمو التجاري في المدن الفينيقية على ما كان يصب فيها من منتجات الأقاليم المجاورة.

أن يكون استخدام الآشوريين لأخشاب فينيقيا في أغراض البناء لأمر أكدته نقوش «بلاوات»[1] التي توحي لنا أيضاً بأن الحملة كانت تجارية أكثر منها عسكرية:

«سرت إلى جبل لبنان وقطعتُ (من غاباته) عوارض الأرز والسرو والعرعر، بعوارض الأرز سَقّفت هذا الهيكل باباً من أوراق الأرز صنعتُ وبأشرطة من نحاس حزمتها وعلقتها في مداخله».

ثم، حتى في ظل الملك آشور ناصربال الثاني، تظهرنا مسلة وجدت في عاصمته (النمرود) كالح أن الصناع الفينيقيين القادمين من صور وصيدا كانوا من بين الذين استخدموا في

---

(1) بلاوات (بلاباذ) قرية في العراق جنوب شرقي الموصل. أنقاض مدينة إيمكوربعل الآشورية حيث اكتشف المنقبون الآثاريون «الأبواب البرونزية» التي تعود إلى عهد الملكين شلمناصّر الثالث وآشور ناصربال الثاني. سُرقت من متحف الموصل الوطني في نيسان 2003 إثر الهجمة الأمريكية على العراق.

تشييد القصر نفسه وكما فعل الملك سليمان من قبل، كذلك كان الآشوريون يستخدمون عمال فينيقيا المهرة في نطاق الاتفاقيات السلمية.

الملك شلمناصّر الثالث
(858 ـ 824 ق.م)

بلغت الدولة الآشورية أيام الملك آشور ناصربال الثاني وابنه شلمناصّر الثالث[1] ذروتها في الازدهار والمجد، وأصبحت إمبراطورية عالمية. وقد كان الآشوريون شعباً عسكرياً موهوباً. فاخترع قوّادهم أسلحة وآلات للحصار كالسلالم لتسلق الأسوار والمدكّات لدكّها. كذلك أتقنوا فنّ تقويض الجدران بحفر ثقوب في أساساتها.

لم يكن فتح سورية الشمالية وإخضاعها أمراً عسيراً على الآشوريين وهم أهل الجوار، غير أن لبنان بجباله، ظل إلى حين الحدّ النهائي الذي وقف عنده الفتح الآشوري، فتابع الملك شلمناصّر الثالث خطة والده آشور ناصربال الثاني التوسعية،

---

(1) شلمناصّر الثالث، ملك آشوري، ابن آشور ناصربال الثاني وخليفته قضى سني حكمه يحارب الشعوب المجاورة في سورية وفرض الجزية على العديد منها، وبنى حصن شلمناصر في كالح. قضى السنوات الأخيرة من حكمه يحارب ابنه البكر الذي حرّض الآشوريين ضد أبيه. كما أن ابنه الثاني شمش أدد الخامس اضطر إلى محاربة أخيه مدّة سنتين قبل أن يخلو له العرش. له نُصْب أسود عليه نقوش محفورة تمثل مبعوثي الملك ياهو الإسرائيلي وهم راكعون أمامه ويدفعون الجزية.

فزحف في مناسبات مختلفة على الدول الغربية (حماة وخصوصاً دمشق)، ثم تابع زحفه إلى أبعد من ذلك حتى فرض الجزية على المدن الفينيقية، وكانت الحملة التي ثبّت اتصاله فيها مع الفينيقيين هي حملة السنة السادسة، التي تمّت عام (855 - 852 ق.م).

فالنقش المحفور على حجر (كَرْف) يبين قوام الجيش السوري مما كان يتألف حيث كان قد تشكل حلف عسكري قوامه إثنا عشر ملكاً بينهم الملك اليهودي الإسرائيلي آخاب[1] وملك عربي اسمه جنديبو[2] (جندب) الذي أرسل 1000 جمل، بالإضافة إلى ملوك عرقة وأرواد[3] وحماة

(1) آخاب: سابع ملوك إسرائيل (874 - 853 ق.م) أبوه «عمري» تزوج من ايزوبعل (ايزابيل) ابنة ايتوبعل، ملك صيدا وصور، التي أدخلت العبادات الفينيقية إلى السامرة رسمياً، مما سبب ضغطاً على الديانة اليهودية، وجعل النبي إيليا يحارب هذه العبادات.

(2) جندب: شيخ عربي جاء ذكره في النص الذي خلفه شلمناصر الثالث الآشوري بمناسبة معركة قرقر. ويتضح من النص المذكور أن هذا الشيخ أسعف حدد عزر وأمدّه بألف جمل، قتلها أو استولى عليها شلمناصر.

(3) أرواد: جزيرة ومدينة فينيقية في الشرق من البحر الأبيض المتوسط على بعد 3كم من طرطوس السورية. اسم أرواد ليس من الأسماء السامية. اشتهرت منذ الألف الثاني قبل الميلاد وإلى أيام حكم السلوقيين. قاومت المصريين إلى أن استولى عليها تحوتمس الثالث (1483 - 1450 ق.م) في حملته الخامسة. احتلها تقلات بلاصر في العام 1094 ق.م. وسلمها ياكين ايل إلى اسرحدون الآشوري (680 - 669 ق.م).

وعمّون... وقد ترأس الحلف ملك دمشق بن هدد الآرامي. وكان جيش الحلف يتكوّن من ستين ألفاً من المشاة بالإضافة إلى عدد كبير من المركبات ومن الفرق الخيّالة.

وبحسب الحجر الذي ذكرناه سابقاً فقد كان الجيش السوري يتألف:

«10 مركبات و10.000 جندي من الأركانيين و200 جندي من الأرواديين يقودهم ماتينوبعيل، و200 جندي من الاسناتيين و30 مركبة وعدد غير محدد (... غير مقروء...) من الشبانيين يقودهم ادونوبعيل...»[1].

ولعل من الطّريف أن تلاحظ التفاوت العددي بين الأركاتيين والسّيانيين، وكانوا بأعداد ضخمة، من جهة، وبين الفصائل الضئيلة التي كان يتألف منها الأرواديون والأسناتيون من جهة أخرى. فهذه الدول لم تكن على وفاق فيما بينها، كان بعضهم يعتزم قتال الملك الآشوري، وبعضهم الآخر كان يمانع في ذلك[2].

(1) فيليب حتّي، ذات المصدر، ص175.

(2) من جملتهم هدد عازر صاحب آرام، غلبه شلمناصّر الثالث في قرقر أيضاً عام 854 قبل الميلاد.

كذلك إن ما يثير الاهتمام أن يذكر اسم الملكين الفينيقيين في هذا النقش؛ أولهما: ماتن - بعل، والثاني أدوني - بعل.

وهكذا حصلت معركة قرقر (على العاصي) عام 855 ق.م وانتصر شلمناصّر الذي قتل 14.000 جندي.

وفي هذه الأثناء، أقام ملك صور حصناً في البترون[1]، وانضم إليه ملكا صيدا وجبيل[2] لبناء ثلاثة حصون في «كيزا» و«ميزا» و«محالاتا» وهي من المدن التي سبق ذكرها والتي أطلق عليها الإغريق في ما بعد وبحسب نظرية أغلب الباحثين أنها «جرابلس» (Triplis) أي المدن الثلاث.

وكرّر شلمانصّر الثالث حملاته، ففي حملات السنوات العاشرة والحادية عشرة والرابعة عشرة التي سيّرها على دمشق وحماة، نجد الإشارة إلى اثني عشر ملكاً من الساحل الفينيقي في جملة أعداء الملك، لكن أشهر هذه المعارك لم تقع إلا في

---

(1) البترون: مدينة فينيقية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقي تقع في الشمال من بيروت وجبيل. جاء ذكر هذه المدينة في رسائل تل العمارنة. وكانت تابعة لملك جبيل. وقد حصّنها ووسّع بناءها ايتو - بعل ملك صور (887 - 856 ق.م) اسمها الكلاسيكي بوتريس. فيها مسرح روماني نُحت مُدَرَّجه في الصخر. استولى الملك السلوقي انطيوخوس الكبير على البترون عام 195 ق.م وكانت تشكل حينها ملجأ للقراصنة.

(2) د. انطون حرب، المصدر نفسه، ص72.

السنة الثامنة عشرة لملكه أي سنة 842 قبل الميلاد، وهاجم حزائيل[1] ملك دمشق الآرامي الذي كان قد تحصن في «جبل سنير المواجه لجبل لبنان».

يروي الملك الآشوري قصة حملته هذه فيقول:

«في السنة الثامنة عشرة لملكي، عبرتُ الفرات للمرة السادسة عشرة. اعتمد حزائيل (ملك) دمشق على كثرة جيشه واستدعى فرقه بأعداد كبيرة، واتخذ جبيل سنير المواجه لجبل لبنان حصناً له. حاربته فانتصرت عليه... وقد هدمتُ مدناً لا عدّ لها وأحرقتها بالنار... ثم تقدّمتُ نحو بعلي - رأسي (رأس بعل) الجبل المشرف على البحر. وهناك أقمتُ نصباً ملكياً لشخصي...»[2].

وفي نصّ آخر يقول:

«تقدّمتُ حتى بلغتُ جبل حوران، مدناً لا حصر لها دمّرتُ وخرّبتُ وأحرقتُ بالنار، استوليتُ على أسلابها التي لا حصر لها، بلغتُ إلى جبل بعلي - رعسي، وهو رأس في البحر، زحفتُ،

---

(1) حزّائيل: ملك دمشق الآرامي (841 - 806 ق.م) قتل بَرْهدد الأول وحمى دمشق من اجتياح شلمناصّر الثالث وافتتح كامل بلاد جلعاد وهدّد مدينة أورشليم. اشتهر حزائيل بعدائه ليهواش ملك يهوذا ويهوآحاز ملك إسرائيل.

(2) د. انطون حرب، المصدر نفسه، ص72.

ونصبتُ تمثالي الملكي هناك. جلبتُ الجزية من أهالي صور وصيدا، ومن ياهو بن عُمري»[1].

وفي نسخة أخرى من الحوليات يرد ذكر ملك صور باسم «بعلي ـ منزر» كما يرد ذكر لقيام الملك الآشوري بنصب تمثال ملكي لنفسه في لبنان.

ثم يذكر حملة أخرى على فينيقيا في السنة الحادية والعشرين لملكه (827 ق.م) يشار فيها إلى أن الملك قد جبى الجزية من صور وصيدا وجبيل، كما يشار إلى ملك اسمه «بعلي» وهو اسم فينيقي كما هو ظاهر، لكن اسم دولته ساقط، أما اسم عاصمته وقد جاء هكذا La-ru?-ba فلم يمكن التعرّف عليه.

عند هذه النقطة يجب العودة إلى حوليات صور التي تورد أسماء، ايتو بعل ومدة حكم كلّ منهم: بعل ـ زورس، عاش خمساً وأربعين سنة وحكم ست سنوات (855 ـ 850 ق.م)، متينوس عاش ستاً وخمسين سنة وحكم سبعاً وأربعين (820 ـ 774 ق.م).

(1) يرجح أن يكون الرأس المشار إليه رأس الكرمل ولكن هذا الملك ترك دليلاً عن زيارته أيضاً عند نهر الكلب.

وتضيف الحوليات الآشورية أنه في السنة السابعة من حكم بجماليون، فرّت أخته، وأسست مدينة قرطاجة في تونس.

هنا تصطدم المعلومات الواردة في هذه الحوليات مع معطيات النقوش الآشورية التي جاء فيها: «أن بعلي ـ منزر، حكم مدينة صور في العام 840 قبل الميلاد وأكثر الأسماء شبهاً باسم بعلي ـ منزر، هو اسم بعل ـ زورس. لكن ثمة تعقيدات كرونولوجية، ذهب العلماء في شهرتها مذاهب شتى. وفي كل منها تنشأ حاجة لتغيير كرونولوجية حوليات صور.

وبالنسبة لموقع «جبل بعلي راسي» يذكر شلمناصّر الثالث في نص آخر «قبالة البحر [أو] الراس الأبيض «مقابل بلاد صورّو[1]» أي البلاد التابعة لمملكة صور، لكن الملك الآشوري يضيف في كتابته ذاكراً أنه نقش صورته إلى جانب صورة تقلات بلاصّر:

«وعند رجوعي، صعدت إلى جبل لبنان ونقشت صورتي إلى جانب صورة تقلات بلاصّر الملك[2]».

ويتباهى «شلمناصّر» ملك آشور بأنه سيطر على كل المناطق الواقعة بين البحرين الأعلى والأدنى، من دجلة إلى البحر

(1) د. انطون حرب، المصدر ذاته، ص72.

(2) هو الملك تقلات بلاصّر الأول (1114 ـ 1076 ق.م).

الأبيض المتوسط، ويرد ذكر لبنان من ضمن البلدان التي احتلّها:

«شلمناصّر... التنين الكبير، ملك آشور، فاتح البحرين الأعلى والأدنى وبلاد حتّي، ولوهوتي وأدري ولبنان، Lab-na-na»[1].

(1) د. انطون حرب، المصدر ذاته، ص72.

الملك تقلات بلاصر الثالث

754 – 727 ق.م

تلاشت الإمبراطورية التي أقامها شلمناصّر وأبوه على حساب الدول السورية وغيرها ثم أعاد تأسيسها بعد قرن، تقلات فلاصّر الثالث[1]. ووريثه. وقد أقام تقلات بلاصر معسكره الرئيسي بين 743 و741 قبل الميلاد في أرباد[2].

قلنا، عقب موت شلمناصّر الثالث عام 824 قبل الميلاد، بضعة عقود من السنين، نعمت سورية وفينيقية خلالها بهدوء نسبي، ففي غضون هذه الحقبة، وقد دامت إلى حين اعتلاء

(1) تقلات فلاصر الثالث: ملك آشور، فرض سيادة الآشوريين وجعل من دولته إمبراطورية قوية التنظيم. وعمد إلى تهجير سكان المناطق المفتوحة واستبدل الملوك المقهورين بحكام آشوريين استولى على أرباد عام 740 قبل الميلاد، وحكم بابل باسم «بولو» اعتباراً من العام 729 قبل الميلاد، وامتدت سلطته في فلسطين حتى الحدود المصرية. وفي أيامه كانت قيليقية تابعة للإمبراطورية الآشورية تؤدي لها الجزية.

(2) أرباد: مدينة تقع شمال حلب. كانت عاصمة دولة بيث آجوشي الآرامية. وقعت هذه المدينة بيد تقلات بلاصر الثالث عام 740 قبل الميلاد، وشكلت قاعدة لإقليم شمل البلاد بين الأمانوس والفرات، وعُرفت حينها باسم «أرفض». أما اسمها الحالي فتل رفعت وتقع في قضاء أعزاز. يرد اسم أرباد في بعض المصادر على صورة «أرفاد».

تقلات بلاصّر الثالث العرش عام 745 قبل الميلاد، لم تُشنّ من الحملات الجديرة بالذكر سوى حملة واحدة قام بها حدد نيراري (809 ـ 782 ق.م) في السنة الخامسة من حكمه، أي عام 805 قبل الميلاد. ويعلن هذا الملك بصراحة أن الجزية حجبت عن أبيه شمشي ـ حدد الخامس[1]، ويزعم أنه تقدم حتى بلغ إقليم الفلسطينيين[2]، والآدوميين[3]، وفرض الضرائب على صور وصيدا.

إلى حينه لم يكن التوسع الآشوري قد اتخذ شكل الفتح الدائم في فينيقية بقدر ما كان نوعاً من الرقابة من مكان بعيد، وفرضاً للجزية وجباياتها، حيث لا نجد في الحوليات الآشورية وعياً توحيدياً (وحدوياً) في العالم الفينيقي، قوائم

(1) شمشي حدد (أدد) الخامس: ملك آشور (824 ـ 811 ق.م) ابن شلمناصّر الثالث وزوج شميرام (سامورامات) المعروفة لدى الإغريق اليونان بسميراميس. أيام حكمه، ضَعُفَت الدولة الآشورية بخسارة بعض الأراضي وبإنهاك الجيش.

(2) الفلسطينيون: شعب قديم، أعطى اسمه لفلسطين (بلاد كنعان) قدم من كيليكية أو كريت، أو من جزر بحر إيجه في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد. واستقر على شاطئ المتوسط بين عسقلان وغزّة طارداً الكنعانيين. حاربهم الإسرائيليون (العبرانيون) وأخضعوهم في القرن العاشر قبل الميلاد.

(3) آدوم أو أدوم، معنى هذا الاسم بالعبرية: الأحمر. وقد أطلقت هذه التسمية في كتاب العهد القديم على عيسو ابن اسحق أخي يعقوب البكر نظراً إلى لون بشرته وشعره. وهو بموجب العهد القديم جد الآدوميين.

بأسماء المدن تذكر كيفما اتفق ولا واحدة منها تصنف في مجموعة لا تمييز بين مدن الداخل ومدن الساحل الفينيقي والواقعة على الساحل غير الفينيقي. كذلك لا نجد عند الفينيقيين قاسماً مشتركاً توحيدياً، ولا تحديداً أو مفهوماً عضوياً.

الغزو الآشوري لفينيقية

في سنة 745 قبل الميلاد، تبوّأ عرش نينوى عاصمة الدولة الآشورية الملك تقلات بلاصر الثالث (745 ـ 727 ق.م) الذي يعتبر أعظم ملوك الآشوريين، فقد سيطر على سورية الشمالية سنة 738 ق.م واحتل دمشق[1] عام 732 ق.م مركز القوة الآرامية، وأحرقها، ثم فرض سيطرته على فلسطين وغزة[2].

(1) دمشق: مدينة سورية تقع في طرف بادية الشام وسط غوطة يسقيها نهر بردى في ملتقى الطرق التجارية والعسكرية القديمة. ورد ذكرها في النصوص المصرية والآشورية وفي سفر التكوين من العهد القديم. سكنها الآراميون وجعلوها عاصمة لمملكة آرام دمشق في القرن العاشر قبل الميلاد. احتلها الآشوريون عام 732 ق.م، والبابليون عام 612 ق.م، والفرس عام 539 ق.م، واليونان عام 333 ق.م والأنباط عام 85 ق.م، والرومان عام 66 ق.م.

(2) غزّة: إحدى المدن «الخمس» الفلسطينية، وهي مدينة قديمة جداً، ذكر سفر التكوين من العهد القديم أنها تقع على حدود بلاد كنعان وجعلها سابقة لإبراهيم الخليل. في هذه المدينة مات شمشون. استولى عليها الاسكندر الكبير في الهجعة

ودفع الجزية شبتي - بعل أو (شفتبعل) ملك جُبيل، وحيرام الثاني[1] ملك صور وصيدا، مقابل استقلالهما الداخلي. ويذكر الملك الآشوري أنه تلقى 150 وزنة من الذهب من صور وحدها.

اشتد الضغط الآشوري في أيام تقلات بلاصر الثالث على البلدان، التي تقع غرب المملكة، وبدأت سياسة ضمّ الأقاليم إلى مملكة آشور. وقد جاء في الحوليات إشارات معينة إلى المدن الغربية تعتبر ذات أهمية بالغة: «جعلتُها ضمن حدود مملكة آشور» حيث «عينتُ عليها حكاماً وعمّالاً» ومن ثم «هجّرت ناساً من مدنهم، وأسكنتُهم في مقاطعات أخرى».

في السجلات المنقوشة على بلاطات وجدت في كلخو (كالح) يرد ذكر لبنان في مجال تعداد المدن التي خضعت للملك الآشوري تقلات بلاصّر الثالث ودفعتْ له الجزية: «أوسنو، سيانو، سيميرا، كاشبونا، وهذه الأخيرة لم يمكن التعرف عليها، لكنها دائماً تقع على ساحل البحر»[2].

الرابعة، بعد حصار دام شهرين. أصبحت غزّة في مطلع العهد المسيحي مركز لإحدى الكنائس.

(1) حيرام الثاني: ملك صور (774 - 739 ق.م) اتو - بعل. قدّم ولاءه مرتين لملك آشور تقلات بلاصّر الثاني (741 - 738 ق.م).

(2) د. انطون حرب، المصدر نفسه، ص74.

وفي نص آخر نقش بالكتابة المسمارية على لوح يعرف بـ«لوح نمرود» ومعروض في المتحف البريطاني، يصف تقلات بلاصّر الثالث قصوره في العاصمة كلحو التي أدخل في بنائها خشباً من لبنان ويقول ما نصّه معرّباً: «بألواح طويلة من الأرز الذي يوازي بطيب رائحته شجر السرو، إنتاج الأمانوس (Ha-ma-na) ولبنان (Lab-na-na) أمانانا (Am-ma-na-na) بنيت سقوفاً لها (لقصوره) وأتممتها بشكل كامل»[1].

وفي الحوليات مقطع آخر لعله يشير إلى نفس الحادثة يذكر أسماء نفس المدن وهي جبيل، وعَرقا[2]، واوسنو، وسيانو، بالإضافة إلى مدن أخرى غير معروفة هي: زيمارا، وريع

---

(1) د. انطون حرب، المصدر نفسه، ص74.

(2) عرقا (عرقة) قرية في لبنان (عكار) مسقط رأس اسكندر ساويروس الإمبراطور الروماني (205 أو 208 - 235) على بُعد 22 كيلومتر شرقي طرابلس، في جانب الممر الذي يصل البحر الأبيض المتوسط بوادي العاصي. وقد كان لها دور كبير غداة معركة قادش (1288 أو 1297 قبل الميلاد) بين رعمسيس الثاني والحثيين. أصول هذه المدينة عميقة في القدم. فقد عُثر فيها على أدوات من الصوّان تشهد بانتمائها إلى العصور القديمة. إلا أن أقدم نصّ ذكرت فيه يعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، فقد ذكرت في العهد القديم (تكوين 10: 15 - 18): «وكنعان وَلد صيدون بكره وحثا اليبوسي والأموري والحويّ والعَرقيّ والسيني والأروادي والصمّاري والحماني». وذكرت في رسائل «تل العمارنة» والنصوص الآشورية. أطلق الإغريق عليها اسم «هراقليا» وأطلق عليها الرومان اسم «قيصيرية لبنان».

- سابا، وريع - سيسو. وربما كان بعض هذه المدن مركزاً يقيم فيه الحكام الآشوريون. وبالفعل يُذكر أحد حكام سيميرا صراحة في قصافة (لوحة) أخرى.

كانت جبيل[1] في وضع خاص، أحياناً كانت تذكر في جملة المدن المنظمة، وأحياناً يُشار إليها كدولة مستقلة تدين للآشوريين بالولاء وتدفع لهم الجزية، ويذكر معها اسم ملكتها سيبيتي - بعلي. والحق أنها ربما احتفظت بهذا الشكل من الاستقلال الجزئي الذي ظلّ عدداً من السنين صفة ملازمة للمدن المحلية، مثلما كانت الحال في مدينة أرواد التي يذكر اسم ملكها متّان - بعلي. ولم تندرج في قائمة المدن الملحقة بالدولة الآشورية.

---

(1) جبيل: مدينة فينيقية قديمة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، على بعد نحو 30 كيلومتر شمالي بيروت. اسم هذه المدينة في النصوص المسمارية جُبلة، وفي كتاب العهد القديم جبل، أطلق عليها المصريون اسم كنبة والإغريق اسم بيبلوس. كانت منذ الألف الرابع قبل الميلاد مركزاً تجارياً نشيطاً يصدّر إلى مصر الأخشاب اللبنانية والنحاس القوقاسي، وكانت كذلك مركزاً دينياً لعبادة الإله أدونيس الفينيقي وأوزوريس وايزيس المصريين. خضعت للسيطرة المصرية، اجتازها الهكسوس، واحتلها الفرس عام 537 قبل الميلاد، فتحها الإسكندر المقدوني، ثم انتقلت إلى أيدي السلوقيين واستولى عليها الرومان. أشهر ملوكها احيرام الذي عثر على ناووسه عام 1920 وعليه أقدم أبجدية. أهم آثارها هيكل البعلة والمقابر الملكية والمسرح الروماني وكنيسة القديس يوحنا المعمدان.

ثم لعلنا نستطيع القول إن الضمّ الآشوري قد امتدّ حتى بلغ إلى الشمال من فينيقية، وبلغ جبيل، إلا أنه ترك هذه المدينة، كما ترك أرواد تنعم بشيء من الاستقلال النسبي. وإلى الجنوب من جبيل لا يرد ذكر لضمّ أية مدينة أخرى.

وأما مدينة صور[1] فقد كانت تدفع الجزية في ظل مليكها حيرام الثاني[2] الذي ما يلبث حتى يعود اسمه إلى الظهور ثانية في نقش فينيقي عثر عليه في قبرص، حيث نجد حاكماً محلياً يسمي نفسه «خادم حيرام ملك الصيدونيين».

---

(1) صور مدينة فينيقية جرى تأسيسها في الألف الثالث قبل الميلاد فوق جزيرة صغيرة قريبة من الشاطئ. كانت تابعة لصيدا في عصر تل العمارنة وقد تحالفت مع مصر وتحررت من هيمنة صيدا في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. أصبحت مركزاً لتجميع وتصريف الأخشاب المقتطعة من جبال لبنان والسلع الواردة من دمشق أو البحر الأحمر بهدف تصديرها إلى الغرب. ولم تلبث أن ترأست الانتشار الفينيقي في حوض البحر المتوسط باتجاه صقلية وإسبانيا وأفريقيا وقد قامت بتأسيس مدينة قرطاجة (814 - 813 ق.م) وهي على طريق قادش حيث المعادن الثمينة من فضة وقصدير. وأدّى هذا النشاط التجاري إلى تنمية صناعة مزدهرة احتكرت المنسوجات الصوفية المصبوغة بالأرجوان وصناعة الأرجوان والأواني الزجاجية وصناعة بناء السفن. حاولت صور التمرد على الحكم الآشوري فحاصرها سنحاريب (701 - 700 ق.م) واسرحدون (672 - 671 ق.م) وآشوربانيبال (668 - 667 ق.م) واستسلمت أخيراً عام 573 ق.م للملك البابلي نبوخذ نصّر الثاني بعد حرب طويلة.

(2) حيرام الثاني: ملك صور (774 - 739 ق.م) ابن اتو - بعل. قدّم ولاءه لملك آشور تقلات بلاصّر الثاني (741 - 738 ق.م).

هذه الواقعة جديرة بالملاحظة إذ قد تنطوي على احتفاظ مدينة صور بقسط كبير من الاستقلال، وعلى حكمها لإقليم مجاور. وأما مدينة صيدا[1] فلا يرد لها ذكر في نقوش تقلات بلاصر. ويعد حيرام جاء ميتينا الذي دفع الجزية هو أيضاً للآشوريين.

---

(1) صيدا (صيدون) مدينة فينيقية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط. بنيت على رأس بري وجزيرة قريبة منه، ولها مرفآن. كانت صيدون في الألف الثاني قبل الميلاد المدينة الرئيسية في فينيقية الجنوبية وذلك حتى اجتياح شعوب البحر للمنطقة (نحو 1200 ق.م) واستيلاء الفلسطينيين عليها، فحلت صور مكانها في الهيمنة. نحو العام 678 ق.م دمّر الملك اسرحدّون الآشوري صيدون. وإبّان الاحتلال الاخميني الفارسي أصبحت قاعدة للمرزبانة (الولاية) الفينيقية. وثارت في العام 355 قبل الميلاد على الملك ارتحشتا الثالث الفارسي والملقّب باخوس فأحرقت. وفتحت أبوابها من ثم للاسكندر المقدوني وساعدته بأسطولها في حصاره لصور. وأصبحت من ثمّ مستعمرة رومانية ومركز أسقفية. ولكن هزّة أرضية دمرتها عام 501 ميلادية، احتلها العرب المسلمون عام 667م.

شلمناصّر الخامس
(727 ـ 722 ق.م)

ملك آشوري، ابن تقلات بلاصّر الثالث وخليفته. عيّن حاكماً على فينيقية عام 733 قبل الميلاد، قبل أن يصبح ملكاً. قام بحملة على هوشع[1] المتآمر مع مصر انتهت بإخضاع السامرة[2] بعد حصار دام ثلاثة أعوام. وحكم هذا الملك بابل باسم اولولاي.

---

(1) هوشع: آخر ملوك إسرائيل (732 ـ 724 ق.م) تآمر على الملك فقح وقتله. وقد يكون ذلك تمّ بمباركة تقلات بلاصّر الثالث. خلف فقح على العرش ودفع الجزية لآشور. وحين رفض الاستمرار بالدفع عام 725 ق.م هاجمه شلمناصّر الخامس وأسره وحاصر السامرة التي سقطت عام 722 ق.م.

(2) السامرة: مدينة كنعانية تقع على هضبة شمال شرق شكيم. قام الملك عمري حوالي العام 880 ق.م بجعلها عاصمة له. فأصبحت عاصمة مملكة إسرائيل. اسمها العبري شوميرون ومعناه مكان المراقبة. جرى تحصين هذه المدينة بصورة منيعة فاستطاعت أن تصمد في وجه ملوك دمشق أيام آخاب (نحو 856 ق.م) ويورام (نحو 845 ق.م) حاصر شلمناصّر الخامس هذه المدينة طيلة ثلاثة أعوام ولم تسقط إلا تحت ضربات سرجون الثاني (724 ـ 721 ق.م) فدمّرت وهجّر القسم الأكبر من سكانها إلى تخوم ميديا. وجلب الآشوريون إلى هذه المدينة مستوطنين أجانب نتج عن اختلاطهم بالسكان المحليين مزيج عرقي وديني نتج عنه ما عرف بـ«السامريين». وبعد تفوّق البابليين أصبحت السامرة تحت سيطرتهم ثم انتقلت السيادة إلى سلطة الفرس الأخمينيين.

سرجون الثاني

(722 ــ 805 ق.م)

ملك آشور. خلف شلمناصّر الخامس. فتح السامرة بعد حرب دامت ثلاث سنوات (عام 722 ق.م) وقد عمد سرجون، تبعاً للسياسة التي كان استنّها تقلات بلاصّر الثالث (745 ـ 727 ق.م) إلى تهجير سكانها إلى حاران[1] وقيليقية، وأحلّ مكانهم آراميين من إقليم حماة[2].

---

(1) حاران، ويرد الاسم كذلك حرّان. مدينة في بلاد ما بين النهرين، تقع على نهر البليخ، من روافد الفرات. أقامت في هذه المدينة عائلة إبراهيم الخليل أثناء هجرته من أور السومريين إلى أرض كنعان. وتقول التوراة إن إبراهيم تلقى فيها الدعوة إلى الإيمان بالإله الواحد، وذلك في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. وورد ذكر هذه المدينة في كتابات أثرية ترقى إلى زمن تقلات بلاصّر الأول وسرجون الثاني. وكانت مركزاً لعبادة «سين» إله القمر.

(2) حماة: مدينة على العاصي شمالي حمص. دمّر الهيكسوس هذه المدينة في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، واحتلّها الميتانيون عام 1550 ق.م ومن بعدهم الآراميون حوالي 1100 ق.م. احتلّها من ثم الحثيون فالآشوريون عام 720 ق.م. من ملوكها ياؤو بعدي. ترأس حلفاً لمحاربة الآشوريين أسهمت فيه أرباد وسميرا ودمشق والسامرة، وحينما نشبت معركة قرقر عام 720 ق.م أسر فيها ياؤو وسُلخ حيّاً.

يستولي سرجون الثاني هذا على جزيرة قبرص[1]. فقد ذكر الجزية التي كان يدفعها له القبارصة في مناسبات عدّة وكان له مسلّة تحمل اسمه مقامة في كتيون. والتطور الكبير الذي نجم عن مغامرات سرجون في البحر المتوسط، وهي المغامرات التي ترويها لنا الحوليات، هو تغير موقف المدن القبرصية والتغيّر الأساسي الذي طرأ على السياسة الاقتصادية في شرقي المتوسط، إذ لم يعد الفينيقيون بقادرين على الاحتفاظ بسيطرتهم على طرق التجارة، ووقعوا تحت حماية الدول الكبرى.

على الرغم من كل هذا، ظلت قوة المدن الفينيقية عظيمة. فقد حاولت ولاية سيميرا التمرّد في بداية حكم الملك سرجون الثاني، إذ اشتركت في ثورة قادتها مدينة حماة، شملت أرفاد ودمشق والسامرة».

---

(1) قبرص: جزيرة في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، اشتهرت منذ الأزمنة القديمة بنحاسها الذي كان يحوّل محلياً إلى سبائك تصدّر إلى مصر وبلاد ما بين النهرين. أنشأ الفينيقيون منذ الألف الثاني قبل الميلاد مستعمرات ومدناً ملكية في قبرص استطاعت أن تحافظ على استقلالها تحت ظل الحكم المصري خلال الألف الثاني قبل الميلاد والحكم الآشوري أيام سرجون الثاني في القرن الثامن قبل الميلاد والمصري مجدداً في القرن السادس قبل الميلاد.

لقد كانت هذه الثورة التي نشبت في سورية الشمالية والوسطى بقيادة الولايات التي أنشأها تقلات بلاصّر وقيادة السامرة التي كانت قد غُزيت لتوّها، وظلّت تتفاعل دون أن يُخمد أوارها. ولعل سببها كان ما نزل من تقهقر سريع بجيش شلمناصّر الخامس مما حمل الملك سرجون الثاني على التدخل، وكان في السنة الثانية من حكمه، فقضى عليها في مدة وجيزة.

لا نعرف إن كانت حصلت أحداث أخرى - لأن ليس بين يدينا أي معطيات أو مصادر - في ظل حكم هذا الملك (سرجون الثاني) على الساحل الفينيقي. لكن الحوليات تشير إلى أنه في السنة السابعة من حكمه دفع الجزية له بضعة ملوك بما فيهم «ملوك الساحل» لبنان.

أما النقش المحفور على أسطوانة الأساس في قصر خورساباد[1] الذي يعرف بالملك سرجون بأنه «من أخضع

---

(1) خورساباد (دورشاروكين) مدينة تقع على بعد خمسة عشر كيلومتراً شمالي شرقي الموصل، أنشأها سرجون الثاني في سبعة أعوام، من العام 713 ق.م. تقوم على أطلالها اليوم قرية خورساباد، تمّ اكتشافها عام 1843م، وظُنّ أولاً أنها أنقاض نينوى، وجرى التنقيب فيها بفضل القنصل بوتا الذي أرسل اكتشافاته إلى فرنسا حيث شكلت الجناح الآشوري في متحف اللوفر. وكشفت الحفريات عن قصر سرجون الضخم ومساحته قرابة العشرة هكتارات، يحتوي على أكثر من مئتي غرفة وثلاثين باحة

كيليكية ومدينة صور» فيدل على الأغلب على أحد الأفعال الحربية التي قادها لبسط النفوذ الرسمي على المنطقة.

إجمالاً ليس لدينا انطباع بأن سرجون الثاني الملك الآشوري كان معادياً لبلاد فينيقيا على وجه الخصوص، بل لعلّه استخدمها في مغامراته الواسعة التي خاض غمارها في البحر الأبيض المتوسط.

ثارت بابل على حكم آشور عام 721 قبل الميلاد واستطاع مردوخ ابال ادين الآرامي أن يستولي على السلطة فيها وأن يحكم مدة اثني عشر عاماً. وثارت دمشق وحماة تدعمهما مصر، فحارب سرجون الثاني المصريين في معركة قرقر - كما سبق وأشرنا - على نهر العاصي، وفي رفح طارد فلول المنهزمين حتى مدينة غزة.

في العام 717 قبل الميلاد قامت ثورات في جبال طوروس بمساعدة جيش كركميش فخلع ملك هذه المدينة وضمّت مملكته إلى آشور.

وشقّقاً خاصة وستة معابد وزقورة ذات سبع طبقات مدهونة بألوان مختلفة وكانت الزخرفة الداخلية تتألف من رسوم نافرة تمثّل مشاهد مضخمة لحياة القصر ومناظر صيد ورسوم المعارك والأبطال الأسطوريين والجنّ. وكانت إحدى الباحات مزينة برسوم على الآجر المطلي بالميناء وعلى بابها الرئيسي شجرتا نخيل كبيرتان مصنوعتان من الخشب الملبّس بالبرونز المذهب، بينما نصبت على الأبواب الأخرى ثمانية تماثيل للآلهة.

وقام سرجون من ثم بثلاث حملات ضد أورسا ملك أوراراتو انتهت عام 714 قبل الميلاد بموت هذا الملك.

وفي العام 713 قبل الميلاد بسط سرجون نفوذه حتى هاليس واستورد من المنطقة الأحجار والمعادن والأخشاب لتشييد «دورشاروكين».

النقوش البارزة والكتابات التي عثر عليها في قره تبه تعطينا فكرة عن إقامة سرجون في ازتودي، وعن الحملة التي قام بها على قبرص، فقد استولى على الجزيرة وهجّر سكانها.

وقامت ثورات في كوماجين[1]، مما حدا بسرجون إلى ضم الدويلات الحثيّة الحديثة وإلى تعيين حكام آشوريين عليها. وقد قُمعت كذلك ثورة في قيليقية. وفي أثناء ذلك استولى قوّاد سرجون على بابل، فأعلن نفسه ملكاً على هذه المدينة عام 709 ق.م، ومات خلال معركة كان يقوم بها في شرقي آشور.

---

(1) كوماجين: منطقة تمتد في سفح جبل طوروس ما بين كيليكية ونهر الفرات. عاصمتها شميشاط. ضمت إلى الإمبراطورية السلوقية وقام بطليموس، أحد حكامها، بثورة عام 162 ق.م وأعلنها مملكة مستقلة. اهتم الرومان بهذه المنطقة نظراً لأهميتها العسكرية عام 64 ق.م. وضموها إلى إمبراطوريتهم في حكم طيباريوس عام 17 ق.م، ثم أعيد إليها استقلالها أيام كاليفولا عام 38م واعتُبرت ولاية رومانية تابعة لسورية عام 72م.

الملك سنحاريب الآشوري

(705 – 681 ق.م)

اسمه الاكدي «سين آحي أريبا» ومعناه الإله سين (القمر) أي زاد عدد الإخوة. وهو ابن سرجون الثاني وخليفته.

كانت بابل تحت حكم الآشوريين بعد أن فتحها سرجون الثاني، ولكن (مردوخ آبال آدين) استطاع أن يستعيدها، وتحالف مع القوات العيلامية، فخرج سنحاريب لمهاجمته وهزمه بالقرب من كيش. ودخل بابل دخول الفاتحين، وعيّن عليها «بعل - ابني» برتبة نائب الملك.

أمضى سنحاريب من ثم عاماً كاملاً في تحطيم القبائل الآرامية والعربية التي تغلغلت في جنوب بلاد ما بين النهرين وفي شماليها.

أما في غربي البلاد، فإن قبرص ألحقت بالدولة الآشورية بعد أن كانت تدفع الجزية سابقاً لمدينة صور الفينيقية، فقام ملك صور بإرسال جيش إلى قبرص لاستعادة سيطرته عليها، مما حدا بسنحاريب إلى إرسال قوّة لمحاربة صور، حيث عقدت

المدن السورية ومنها الفينيقية ائتلافاً أو حلفاً فيما بينها بوجه الآشوريين كما جاء في إحدى المسلات التي تؤرخ الحادثة:

«في حملتي توجهت إلى بلاد الحثيين (في سورية) و«لولي» ملك صيدا، استولى عليه الرعب من عظمة سلطاني وجبروتي، فانطلق هارباً في عباب البحر، وهناك مات.. صيدا الكبرى، وصيدا الصغرى، بيت زطّي، شريفتا، محلّيبا[1]، أوشو، عكزيب، عكا[2]، مدنه المنيعة الحصون حيث معالف ومشارب حامياته، الخوف من أسلحة ربّي وإلهي آشور قهرها وجعلها تركع خاضعة عند قدمي. أجلست توبعلو (ايتبعل)[3] على العرش ملكاً عليها، وفرضت عليه تقديم الهدايا لجلالتي، وفرضت عليه الجزية إلى الأبد بلا توقف. مناحيم الشمسوروني

(1) محلّيبا، قد تكون ذات البلدة التي تقع شمال لبنان باسم محلبية أو حلبة.

(2) عكا: مدينة قديمة تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، جنوبي صور، تشكل الحدود الجنوبية لفينيقية. اتخذها الفينيقيون في البدء قاعدة لهم واستفادوا من خليجها الذي يحمل اسمها، وعند قدوم العبرانيون كانت عكا من نصيب آشير، إلا أنها لم تخضع لهذا السبط وكانت هدفاً لمعظم الفتوحات العسكرية المصرية والقادمة من وادي الرافدين وخاصة الآشوريين وكذلك الحثيين. أطلق عليها البطالمة اسم بتولماس وجعلوها قاعدة رئيسية لهم، احتلها من ثم المكابيون، وأصبحت لاحقاً مركزاً لأبرشية مسيحية.

(3) ايتبعل بالفينيقية، ايتوبعل بمعنى بعل معه (راجع حتّي) ذات المصدر، ص153.

وتوبعلو الصيدوني وعبدي - بعتي الأروادي[1]، وأورو - لملكي الجبلاوي[2]، وميتيني الأشدوني[3]، وبودو - ايلو البيتعمّوني[4]، وكمو - سنادبي المؤابي[5]، ومليك - رمّو الآدومي[6]، ملوك العموريين (الآموريين)[7] كلهم قدموا هدايا باذخة في ثقل جزيتهم، جاءوا بها إليّ للمرة الرابعة، وقبّلوا قدميّ».

(1) يقصد بذلك ملك جزيرة أرواد.

(2) ربما يكون ملك جبيل.

(3) نسبة إلى أشدون أو أشدود وهي إحدى مدن فلسطين الخمس الرئيسية كان فيها معبد للإله داجون، حفظ فيه تابوت العهد فترة بعد انتصار حققه الفلسطينيون على الإسرائيليين. افتتح الآشوريون هذه المدينة في آخر القرن الثامن قبل الميلاد وعانت مراراً من المعارك التي كانت تدور في فلسطين. أطلق عليها الآشوريون اسم أشدودو.

(4) قد يكون ملك العمونيين. والعمونيون شعب ينحدر - وفق التوراة - من عمّون ابن لوط. والعمونيون كانوا على صراع مستمر مع الآموريين المقيمين إلى الشمال منهم. وقد سلبهم سيحون الأموري قسماً كبيراً من أراضيهم. وتحالفوا مع المؤابيين ضد بني إسرائيل وكانوا في نزاع دائم.

(5) ربما هو ملك الموآبيين، ومؤاب شخصية توراتية، ولد من مضاجعة ابنة لوط البكر لأبيها بعد دمار سدوم وعمورة (تكوين 19: 31 - 33) ومؤاب منطقة تاريخية، تقع في الهضاب المشرفة على شرقي البحر الميت هي اليوم قسم من الأردن.

(6) هو ملك الآدوميين، والآدوميين هم ذرية عيسو الملقب بآدوم. وآدوميا منطقة كانت تشمل القسم الجنوبي من اليهودية، عاصمتها البتراء.

(7) العمورن (الآموريون) إن لفظة آمورو ليست سامية بل سومرية ومعناها (الغربي) أي الذي يقيم في الجهة الغربية، وقد اتخذ الآموريون اسم الكنعانيين في بلاد فينيقيا

وقام ملك صور بإرسال جيش إلى قبرص لاستعادة سيطرته عليها، مما حمل سنحاريب إلى إرسال جيش قوي لمحاربة صور، ولم تحاول المدن الفينيقية الأخرى أن تقاوم الآشوريين، فهرب ملك صور ايلو ـ ابلي إلى قبرص حيث مات فيها ووضع مكانه الملك ايتبعل ـ الآنف الذكر ـ ملك صيدا الميّال للآشوريين. وأحرق الفاتح الآشوري في أول الأمر بيت ايلو ـ ايلي الصيفي في لبنان، وداس كرمه وقلعته، وتسلّقت جيوشه المنحدرات المرتفعة واستعانوا بالرماح والنبابيت[1] وبالاستراحة تحت الأرز حتى وصلوا إلى قلعة على القمة المكلّلة بالثلج واقتيد حراسها مكبلين إلى سنحاريب. ولا تزال ذكريات سنحاريب الذي: «نزل كما ينزل الذئب إلى الحظيرة» ماثلة حتى اليوم عند مصب

والآموريون دخلوا العراق وأسسوا دولة عاصمتها بابل ومن أشهر ملوكهم حمورابي المشرع الكبير.

(1) النبابيت، ومفردها نبوت، وهي عبارة عن عصا يتراوح طولها من نصف إلى المتر الواحد، أحد طرفيها أغلظ من الثاني يسميه العراقيون (المكوار) وقد يلصق عليه كرة صلبة من القير الأسود.

نهر الكلب بالبحر المتوسط حيث نقش على الصخور نقشاً يمكن مشاهدته[1].

ويذكر مصدر آخر أن «لولي» هرب من صور إلى قبرص حيث مات فيها[2] والمعروف أن الحملة المشار إليها قد حدثت في عام 701 أو 700 قبل الميلاد. ولولي هذا هو نفسه ايلولاوس المذكور في حوليات صور، ويقال إنه حكم ستة وثلاثين سنة، واصطلاح «ملك صيدا» الوارد في الحوليات الآشورية، لا يمكن أن يعني غير امتداد سلطانه إلى هذه المدينة. فقد كان ملكاً على صور كما يقول يوسيفوس[3]. وهذا أمر لاشك فيه، والدليل على ذلك أيضاً أن الحوليات الآشورية تذكر أنه هرب من صور إلى قبرص ـ كما مرّ معنا قبل قليل ـ على أن يوسيفوس يمدّنا برواية تثير الاهتمام عن المدن الفينيقية الأخرى التي

(1) مازال النصب ماثلاً في مكانه إلا أنه بحالة يُرثى لها حيث لم يعد واضح المعالم لما يعانيه من الإهمال تحت العوارض الطبيعية صيفاً وشتاء، نهيب بالسلطات الآثارية اللبنانية الاعتناء بها خدمة للعلم والتاريخ والتراث.

(2) D.D. Luckenbil, Ancient Reconds of Assyria and Babylonia, 2 vois (Chicago, 1926 - 7

(3) يوسيفوس (فلافيوس) مؤرخ يهودي (37 ـ 100م) ولد في أورشليم من عائلة كهنوتية، منتمياً إلى الفريسيين. شاهد حصار أورشليم واستقر في روما. خلّف مؤلفات كتبها بالإغريقية هي «الحرب اليهودية» و«العاديات اليهودية» وسيرة حياته ومقالة ضد أبيونوس.

انفصلت عن صور، ووضعت تحت تصرّف الملك الآشوري ستين سفينة لمحاصرة الجزيرة.

ولعلنا نتساءل عن السبب الذي حدا هذه المدن أن تناصب العداء لمدينة صور التي كانت أكبر المدن الفينيقية: هل كان ذلك بضغط من الآشوريين؟ أم أن هذا الضغط قد أضيف إلى مشاعر المنافسة والعداء التي تكنّها المدن الأخرى لمدينة صور؟

يذهب يوسيفوس إلى أن صور قاومت الحصار خمس سنوات، وهزمت الأسطول الذي أرسل لغزوها. لكن على الرغم من هذا، لقد هرب ايلاوس[1] وكان تنصيب ملك جديد على صيدا من قبل الآشوريين (وهو توبعلو أو ايتوبعل الثاني) فيكون بذلك ضربة قاصمة توجّه إلى أقوى مدينة فينيقية.

ليس هناك مراجع أخرى عن الحملات التي أرسلها الملك سنحاريب الآشوري إلى المنطقة الفينيقية (لبنان) وقوله:

---

(1) هو الملك ايلو ايلي ملك صور (726 ـ 690 ق.م) ورد ذكره في النقوش الآشورية باسم لولي، ومعنى اسمه «إلهي هو الله» ويعرف كذلك باسم ايلولاي. فرض هيبته على المناطق الفينيقية المجاورة، وحاول استعادة قبرص التي استولى عليها سرجون الثاني الآشوري (722 ـ 705 ق.م) قام بثورة على الملك سنحاريب الآشوري بتشجيع مصر وعمّت الثورة عسقلان وعقرون فسيّر الآشوريون حملة عسكرية لقمعها وتمكنوا من هزم الجيش المصري عام 701 قبل الميلاد في معركة وقعت بالقرب من عقرون وتابعوا زحفهم وخرّبوا مملكة يهوذا وطاردوا الملك ايلوايلي الهارب من وجههم عبر البحر إلى قبرص، ونصبوا ايتوبعل الصيداوي ملكاً على فينيقية بدلاً من ايلوايلي.

«إن البحّارة الصوريين والصيدونيين والقبارصة أسرى في يدي»

هذا القول الذي ورد في مغامرات لاحقة لابد أنه يشير إلى الذين وقعوا في أسره في أثناء الحملة التي شنّها في العام 701 أو 700 قبل الميلاد.

الملك أسرحدّون الآشوري
(680 ـ 669 ق.م)

ملك آشوري، رابع أبناء سنحاريب، أخوه آراد - ملكات قام باغتيال أبيه بينما كان هذا الأخير يصلي في المعبد عام 681 قبل الميلاد، ولكن الجاني لم يحقق الغاية المرجوة من جريمته، فقد تصدّى له أخوه اسرحدّون وحاربه وانتصر عليه وأعلن نفسه ملكاً بعد 42 يوماً على مقتل الملك سنحاريب.

كانت أمّ أسرحدّون بابلية، وصمم على إعادة العاصمة المهدمة إلى سابق مجدها بابل من أجل أمّه.

حاول نابو زركنوليشر، ابن مردوخ أبال أدين، أن يغتصب الحكم من أسرحدّون... أثار «أرض البحر» وتقدم لمحاصرة أور، ولكنه هزم وهرب إلى عيلام حيث قتله حوما نالداش الثاني (681 - 675 ق.م).

عرفت الفترة الممتدة بين نهاية حكم تقلت بلاصّر الثالث (727 ق.م) وسقوط نينوى (612 ق.م) ثورات متتالية للبلدان الواقعة تحت الحكم الآشوري، ومن بينها تلك التي اندلعت سنة 676 ق.م في مدينة صيدا زعيمة مدن فينيقيا منذ عهد

سنحاريب (705 ـ 681 ق.م) بتحريض من الفرعون المصري فهاجمها أسرحدّون ودمّرها تدميراً كاملاً وبنى مكانها مدينة جديدة سماها (كاراسرحدون). فقد حاول فرعون مصر أن يستعيد سيطرته على سورية فأوعز إلى عبدي ـ ملكوتي ملك صيدا الفينيقي بالثورة على آشور حيث كان قد خلف إيتو بعل على عرش صور. وكان عبدي ملكوتي قد تحالف مع ساند ـ وارّي ملك كيليكية ضد العاهل الآشوري وقد حفظ لنا النقش الآشوري ما فعله أسرحدّون بصور جراء هذا العصيان:

«عبدي ـ ملكوتي، ملك صيدا، الذي لم يرهب جلالتي، لم يكترث لكلمة شفتي، وَثَق بالبحر المخيف، وخلع عنه نيري، صيدا مدينة حاميته التي تقع في وسط البحر، سوّيتها مع الأرض، أسوارها وبيوتها دمرتها ورميتها في البحر، الموقع محوته، مستعيناً بربي آشور.

ويردف إلى قوله:

«قبضت على عبدي مِلْكوتي الذي كان قد أفلت من ذراعي كسمكة خارجة من البحر، وقطعت رأسه. زوجته، أولاده، حاشية بلاطه، أملاكه ومتاعه، أحجاره الثمينة، ملابس من صوف ملوّن وكتّان، جلود الفيل والأنياب، خشب القبقب والبقس، جميع أنواع الكنوز بكميات هائلة نقلتُها من

قصره، رعيته المشتتة التي لا يحصرها العد: ماشية وغنماً وحميراً بأعداد كبيرة نقلتها إلى بلاد آشور.

ويضيف من ثم ما نصه:

«وجمعتُ ملوك خاطي والساحل كلهم[1]... وأمرت بتشييد مدينة دعوتها باسم كار ـ أسرحدّون... سكان مدينة... والمدائن المحيطة بصيدا التي وقعت في قبضتي بعون الربّ آشور. الناس الذين سباهم قوسي وهم سكان الجبل والبحر الذي تغرب فيه الشمس[2]، حيث استقر بي المقام مدة، ثم قفلت عائداً إلى بلاد آشور.

ويختم النص بقوله:

«تلك الولاية (صيدا) أعددتُ تنظيمها، وعينت لها موظفاً من عندي يحكمها، إذ فرضت عليها جزية أكبر من جزية الأيام السالفة، أما مدنه الأخرى ـ مَعْرُبّو وشرقتا ـ فوكلت أمرها إلى بعلي ملك صور».

---

(1) المقصود بـ«خاطي أو حاطي هو بلاد سورية والساحل المقصود به ساحل البحر المتوسط الشرقي من شمال سورية إلى جنوب فلسطين.

(2) يقصد البحر المتوسط الذي كان يدعى سابقاً باسم آمورو أي جهة الغرب حيث مغيب الشمس.

يتضمن هذا المقطع الذي نقلناه عن الحوليات الآشورية وقائع معينة على جانب كبير من الأهمية منها:

أولاً: أن صيدا التي كانت موالية للآشوريين، أصبحت معادية لهم. بينما قامت صور وكانت معادية لهم من قبل بمدّ العون لهم في ظل مليكها الجديد بعل[1].

ثانياً: زد على ذلك أن إقليم صيدا كان يشتمل على مقاطعة شَرْفتنا، التي انتقلت بعدئذ إلى صور التي كان من الواضح أيضاً أنها سيطرت على منطقة في الجنوب.

ثالثاً: أعقب غزو المدن هذه المرّة تدميرها وتهجير أهلها وإسكانهم في مكان آخر.

ويذكر أسرحدّون في أحد النقوش التي خلّفها، أنه أثناء حملته على سورية ولبنان وفلسطين، فرض على ملوك المنطقة أن يقدّموا له خشباً لبناء قصره في نينوى فيقول:

«أرسلتهم جميعاً لينقلوا إلى نينوى... ألواحاً سميكة من الأرز والشربين، منتوجات سيرارا ولبنان Lab-na-na»[2].

وقرّر أسرحدون الزحف على مصر واحتلالها، للقضاء على محاولات التمرد المدعومة من حكام وادي النيل.

---

(1) هكذا في الأصل، بينما اسمه في الحوليات هو «بعلي».

(2) د. انطوان حرب، المصدر نفسه، ص74.

وتحضيراً لهذه الحملة، يعقد الملك الآشوري معاهدة مع بعلو (بعل) ملك صور عام 671 ق.م يرد فيها مرة أخرى اسم لبنان، ويضمن بموجبها خدمات الأسطول الصوري وعدم تعرّضه لأموال الملك الآشوري في البحر. لكن ملك صور لا يلبث أن ينقض المعاهدة ويرفض نقل الجنود الآشوريين المعدّين لاحتلال مصر. فيحاصر أسرحدون صور التي تقاوم بنجاح وتصمد. ثم يزحف على مصر بمساعدة رؤساء القبائل العربية في الصحراء فتسقط في يده ويعلن نفسه ملكاً عليها.

وتابع أسرحدّون زحفه باتجاه مصر، واجتاح دلتا النيل (منطقة وادي العريش) وكان أول ملك آشوري يدخل هذا البلد، إلا أنه اضطر إلى سحب جيوشه عام 674 ق.م والعودة إلى بلاده لمواجهة حلف مؤلف من الآريين والسقيتيين والماديين[1]

---

(1) الآريون: هم أجداد الشعوب الهندو - أوروبية في الهند وإيران. واسم إيران مشتق من هذا الجذر. وقد أطلقت هذه التسمية في الأزمنة القديمة على مجموعة من الشعوب قطنت شرق البحر الأبيض المتوسط تنتسب إلى عائلة الشعوب الألبية التي غزت شمالي الهند والسقيتيون شعب من أصل إيراني كان يسكن سقيتية في الشمال الشرقي من أوروبا ومن ثم في الشمال من البحر الأسود. وتحالف السقيتيون في القرن السابع قبل الميلاد مع الآشوريين وقاموا بصحبة هؤلاء بحملة أوصلتهم إلى مصر. والماديون هم سكان ميديا ويعتبرهم هيرودوتوس وسترابون شعباً آرياً. جاء ذكرهم للمرة الأولى في نص للملك الآشوري شلمناصّر الثالث (القرن التاسع ق.م) واستقروا في بلاد فارس

كان يتهدد الحدود الشمالية والشرقية للإمبراطورية، واستطاع أن يبعد عن بلاده خطر هؤلاء الأقوام.

وفي هذه الحقبة أيضاً أبرمت معاهدة بين الملك أسرحدّون الآشوري وبعل ملك صور - وُجدت منقصفة - تعطينا فكرة واضحة عن السياسة الآشورية والفينيقية. في القسم الأول منها بيان بالالتزامات التي يلتزم القيام بها بعل تجاه أسرحدّون، وذكر للمعايير التي تسوّى بموجبها الخلافات التي قد تنشب بين الدولتين.

وفي القسم الثاني توجه إلى الآلهة بالدعاء بما هي الضامنة للمعاهدة واستنزال لعنتها على من يخرقها. وهذه المعاهدة نصّ صريح على مركز الحاكم الآشوري في صور، وهو الحاكم المكلّف بجميع الشؤون الآشورية وفيها أيضاً نصّ من مجلس القدماء (الشيوخ) يساعد الملك على القيام بمهامه. كذلك أعارت المعاهدة انتباهاً لمشكلات الملاحة التي توليها صور اهتماماً خاصاً إذ عُينت فيها المرافئ السورية التي يحق لسفن صور أن ترسو فيها بعد السماح لها بالتجارة من قبل سلطات الإقليم الذي يحكمه الآشوريون.

واتخذوا في القرن السابع ق.م مدينة اقبطان (همدان) عاصمة لهم، تحالف الماديون مع البابليين للقضاء على الدولة الآشورية حيث سقطت نينوى عام 612 ق.م.

لقد كانت هذه المعاهدة مرهقة لصور، لا قِبَل لها بتحمّلها.

وفي السنة العاشرة من حكم أسرحدّون (671 ق.م) تحالفت صور مع تِحرَقا[1] (تهرقا) ملك مصر وأعلنت تمردها على آشور وفي نقش آشوري آخر، يعلن أسرحدّون ما نصه:

«استوليت على صور التي تقع في وسط البحر. ملكها بعلو الذي وثق بتحرقا ملك اثيوبيا، جميع مدنه وأمواله جردته منها، غريت (غزوت) مصر، ومصر العليا واثيوبيا».

غير أن عدداً من قصافات هذه الحوليات، يوحي لنا، في هذه المناسبة أيضاً، بأن إخضاع المدينة اقتصر على فرض الجزية عليها، بعد أن انقطعت عنها الأحداث التي كانت تأتيها من جزيرة صور، فضلاً عن أن صور ظلت حتى بعد اعتلاء آشور

(1) تحرقا (تهراقا) وتسميه النصوص الآشورية تارقو كما ورد في نص من عهد آشور بانيبال وهذا نصه: «في حملتي الأولى سرت لمواجهة «مكان» و«ميلوخا» التي هزمها وأخضعها والدي اسرحدون. إلا أن تارقو نسي قوة الإله آشور والآلهة العظيمة سادتي ووثق بقوته الخاصة في زحفه نحو الملوك (الحكام) الذين نصبهم والدي لحكم مصر، حيث صمم تارقو على قتلهم ونهبهم وتقليل أهمية مصر، وقد أنزل الهزيمة بهم، ودخل ممفس التي هزمهم والدي وضمها إلى إقليم بلاد آشور، أتاني الرسول الآشوري إلى نينوى وأخبرني بما جرى عندها تضرعت إلى الآلهة العظيمة، وزحفت نحو مصر واثيوبيا». يبدو من هذا النص أن اسرحدون جعل مصر مقاطعة آشورية واتخذ من مدينة ممفس عاصمة مصر السفلى مركزاً لإدارة مصر، وأسكن الملوك والوزراء الذين عينوا من قبله في هذه المدينة.

بانيبال العرش خلفاً لأسرحدون، تتمتع بحكم ذاتي ويحكمها مليكها بعل.

في كل الأحوال، اتسم حكم أسرحدّون بمزيد من انتقاص استقلال فينيقية، إذ قُسّمت إلى ولايات آشورية صغيرة: سيميرا في الشمال، ومنطقة صور (كار اسرحدون) في الوسط، ومنطقة صور (اوشو) في الجنوب. ولم تحتفظ باستقلالها الجزئي غير بضع دويلات المدن المتفرقة: أرواد وجبيل وجزيرة صور.

غزو أسرحدّون مصر

أشرنا قبل قليل إلى دعوة حكام مصر للدويلات الفينيقية للتمرد ضد سلطة الآشوريين ومنها تحالف الملك تحرقاً المصري مع ملك صور، فأراد أسرحدّون دخول مصر وغزوها فعقد معاهدة مع بعلو ملك مصر عام 671 ق.م ليردّ فيها مرة أخرى اسم لبنان ويكسر شوكة المصريين بضمان خدمات الأسطول الصوري وعدم تعرضه لأموال الملك الآشوري في البحر. لكن ملك صور لا يلبث أن ينقض المعاهدة ويرفض نقل الجنود الآشوريين المعدّين لاحتلال مصر، فيحاصر أسرحدون صور التي تقاوم بنجاح وتصمد. فيزحف إلى مصر بمساعدة رؤساء القبائل العربية في الصحراء، فتسقط في يده ويعلن نفسه ملكاً عليها، إذ تقدم إليها من منطقة رابيحي (تل رفح) وشق طريقه

في أرض مصر ووصل بعد خمسة عشر يوماً إلى مدينة منف (منفس) التي سقطت بعد مقاومة لم تستمر إلى نصف نهار وفرّ تحرقاً (طهرقة) إلى الجنوب بينما أسرت زوجته وحريمه وأولاده. وقام أسرحدون في طريق عودته بأسر منسّى ملك اليهود، واصطحبه معه.

طبقاً لجميع الأدلة المتوفرة، كان تمرد صور هذا ذا صلة بمحاولة المصريين القدماء على سيادة الآشوريين على فينيقية. لكن الآشوريين تمكنوا من إخماد الثورتين على الرغم من أن صور لم تكن تحت الاحتلال الآشوري آنذاك، ولم يكن عليها غير أن تقدم آيات الولاء وتدفع الجزية، ومباشرة بعد إخضاع صور تذكر النقوش الآشورية، إخضاع جزيرة أرواد، كما ورد في النص التالي:

«يا كينلو، ملك أرواد الذي يسكن في وسط البحر، أبى الخضوع للملوك آبائي، فوضعت النير في عنقه. ابنته جاء بها إلى نينوى ومعها بائنة ضخمة لكي تخدمني كإحدى محظياتي وقبّل قدمي».

ويذكر في نقش آخر ما يلي:

«فرضت عليه جزية سنوية، ذهباً وصوفاً أحمر عميقاً، وصوفاً أسود، وسمكاً وطيراً».

وكبادرة على تمرد أرواد يجدر بنا أن نستشهد برسالة من حاكم آشوري اسمه ايتي - شمس - بلاتو إلى ملك آشور جاء فيها:

«ايكي - لو[1] لا يسمح للسفن بمغادرة مرفأ الملك مولاي جميع السفن يسوقها إلى مرفئه. كل من يأتي يذهب إلى فرفا من بلاد الآشوريين يأتي ويدمّر سفنه».

وهكذا دفع لبنان الجزية للآشوريين من ثروة غاباته ألواحاً سميكة من الأرز والشربين والعرعر والصنوبر.. نقلها الغزاة إلى بلادهم عبر مجاري الأنهار ليستعملوها في بناء السقوف لقصورهم ولهياكل آلهتهم.

وقد خلّد ملوك آشور مآثرهم، ومن أهمها تزويد بلادهم بمادة الخشب، بنقوش تُظهر عملية نقل جذوع الأشجار بواسطة السفن، كما نقش الملك الآشوري سرجون الثاني (721 - 705 ق.م) على أحد جدران قصره في مدينة «دور شاروكين» أو خورساباد حالياً.

(1) لعله ياكين - لو.

الملك آشور بانيبال
(668 – 626 ق.م)

اسمه بالآشورية: آشور بن أبلي.

ابن أسرحدّون وخليفته. فُضّل في توليته الحكم على أخيه البكر (الكبير) شاماش شوم أوكين[1]. وأطلق عليه الإغريق اليونان اسم سردنا بالوس.

(1) شاماش شوم أوكين: ابن أسرحدّون، نصبه أبوه أميراً على بابل (688 - 648 ق.م) وهو من السلالة التاسعة للاحتلال الآشوري لمدينة بابل. حارب العيلاميين. إلا أنه في العام 652 قبل الميلاد اشترك في تحالف قام بين دولة عيلام والكلديين والجزيرة العربية وسيناء وسورية لمحاربة الآشوريين. حاصره أخوه آشور بانيبال في بابل وأحرق قصره فمات بين اللهب عام 648 قبل الميلاد وانتهت ثورته بموته. ذكر آشور بانيبال في نصّ له ما منحه لأخيه شمشواكين فيقول: «نصبت أخي (الخائن) شمش - شوم - أوكن الذي تربطني به عِلاقة طيبة ملكاً على بابل، وقدمت له كل ما أحتاج إليه في المملكة، الجنود والعربات والخيول والبساتين مع سكانها جميعاً. وضعتها تحت تصرفه، منحته أكثر مما أمر به أبي، لكنه نسي هذا العطف. رأيته قد خطط للشر، وكان في الظاهر يتكلم كلمات طيبة، وفي الباطن يضمر الشرّ في قلبه. أما البابليون المخلصون لبلاد آشور، والذين كانوا تابعين لي، فقد خدعهم بقول الأكاذيب، وأرسلهم إلى نينوى على وفق خطة تنطوي على الخداع. لقد أثار الشكوك عندما راح يسألني (السلام والتحية). أنا آشور بانيبال ملك بلاد آشور، الآلهة العظيمة سادتي اختارت لي هذا المصير، هدتني إلى الحقيقة والعدل، دعتني إلى وليمة فاخرة مع هؤلاء

قلنا اختار أسرحدّون ابنه الأصغر آشور بانيبال وريثاً للعرش فظهرت بوادر ثورة داخلية قام بها الأمراء احتجاجاً على هذا الاختيار الذي حرم الابن البكر «شاماش شوم أوكين» من خلافة العرش. وأمر أسرحدّون بذبح العديد من هؤلاء الأمراء لإخماد الثورة.

إذن استقبل آشور بانيبال عهده بالتمرد والثورات من داخل البلاد (بابل) وخارجها مصر وفينيقيا.

وفي مقطع آخر يقوم ايكي -لو بعرقلة التجارة البحرية الآشورية إلى درجة خطيرة. لكن بعد وفاته يذهب أبناؤه ومعهم هدايا ثمينة ليقدموا ولاءهم إلى الملك آشور بانيبال الذي اختار عازي - بعل خلفاً لأبيه على العرش ومنح الأبناء الآخرين هبات وهدايا.

يستفاد من هذا، أن الملك الآشوري آشور بانيبال ربما كان مرتبطاً بمعاهدة يقوم بموجبها بتعيين من يخلف الملك من أبنائه،

البابليين، خلعت عليهم خلالها حلل الكتان الزاهية، ووضعت الحلقات في أصابعهم وأقاموا مدة طويلة في بلاد آشور وهم مهتمون بأمري، مثبتون لي أن شمش -شوم - أوكين أخي «الخائن» نقض اليمين الذي قطعه لي وخطا يحرّض عليّ سكان أكد وكلديا والآراميين وبلاد البحر من عقبة إلى بلاد سالميتي التابعين الخاضعين لي.... أعلنوا العداء لي وربطوا قواتهم به، كما أغلق أبواب سبار وبابل وهكذا كسر رابطة الأخوة وصعد مقاتليه على أسوار هذه المدن ووضعهم أمامي في حالة حرب».

أو أن ياكينلو (ايكي لو) لم يُسمّ خليفته على العرش، فآثر أبناؤه الاعتماد على نصيحة الملك آشور بانيبال.

ولكن بعد أن يرجع آشور بانيبال من حملته التاسعة على القبائل العربية يجد نفسه أمام تمرد آخر يقع في بلاد فينيقيا، كما يرويه هذا المقطع من حولياته:

«لدى عودتي استوليت على مدينة أوشو الواقعة على شاطئ البحر (الكبير) أهالي أوشو[1] الذين ما كانوا ليرتعدوا فرقاً من حكامهم، ولا يدفعون الجزية، ولا يقدّمون الهبات السنوية، ذبحتهم. والعاملين أخذتهم بالعصا. الآلهة والناس نقلتهم إلى بلاد آشور. عصاة عكا ذبحتهم، علّقتُ جثثهم، ومن بقي أخذته إلى بلاد آشور، وجعلتهم في تنظيمي العسكري، وأضفتهم إلى جيوشي الجرارة التي أنعم بها عليّ إلهي آشور».

بقي آشور بانيبال أميناً لمخطط أسلافه التوسعي[2]، فاجتاح مصر العليا ودمّر عاصمتها طيبة عام 663 قبل الميلاد، كما فعل بالسامرة[3]، وبابل، ومدن أخرى. وزرع الرعب

---

(1) أوشو واكو: مدينتان تقعان على ساحل البحر المتوسط في فينيقيا.

(2) للتفاصيل طالع كتاب الدكتور رياض عبد الرحمن الدوري، آشور بانيبال، سيرته ومنجزاته، بغداد (2001) ص71 - 87.

(3) د. رياض الدوري، المصدر السابق، ص85 - 87.

الآشوري في كل الشرق. وبعد عودته من مصر، قدّم له ملوك أرواد وصيدون الطاعة.

نعم، كان للحملات العسكرية التي أرسلها آشور بانيبال إلى مصر، ردود فعل من عدة جهات من الإمبراطورية الآشورية، وأن انهماك جزء غير قليل من الجيوش الآشورية في ميدان صراع، يبعد 2200كم اعني مصر سبب الضعف والوهن في عدة ولايات مثل فينيقية.

لقد كان لحركات التمرد التي قامت على ضفاف النيل، أصداء في فينيقيا، حيث أعلن كل من «بعالو» ملك صور و«ياكنلو» ملك ارفاد (جزيرة أرواد) الملكين المخلصين لآشور عام 669 ق.م رفضهما الامتثال لأوامر آشور بانيبال عام 665 ق.م. فخفّ الآشوريون لمحاصرة صور (التي كانت جزيرة مقطوعة من الساحل اللبناني) وفصلها عن الأرض الأم، فحلّت المجاعة وأجبر سكانها على الاستسلام في النهاية. وعمد الآشوريون إلى استخدام أساليب مماثلة ضد أرواد. وقد أمكنهم من الحصول على نتائج مشابهة، إلا أن حكام تلك المدينة عُوملوا بالحسنى، وربما كان ذلك بسبب انشغال آشور بانيبال

في غزو مصر، وعدم رغبته في خسارة حلفائه الفينيقيين، فضلاً عن تعذر تحشيد جيوش كافية لفتح جبهات حرب جديدة[1].

وبعد أن حقق آشور بانيبال النصر على المدن الفينيقية الواقعة على الساحل اللبناني - وبعد حصار دام أربع سنوات - سارع ملك صور إلى تقديم فروض الطاعة والولاء إلى الملك الآشوري فضلاً عن تقديمه بناته وبنات إخوته من محظيات لآشور بانيبال. ولقد تمّ ذلك بواسطة ابن بعالو، الذي قدمهن مع هدايا كثيرة، إلا أن آشور بانيبال الذي امتلك قلباً عطوفاً أشفق على ابن بعالو، ومن معه من نساء وأعادهم جميعاً إلى ملك صور. وهذه سجية كريمة اتصف بها الملك الآشوري الذي كان يعفو عن أعدائه عندما يقتدر عليهم[2].

إذن، صور فتحت أبوابها للملك الآشوري إثر تسوية سلمية تمت بين الفريقين، وتقضي بأن تدفع صور ضرائب كبيرة، ويقدّم ملكها ابنته لتضمّ إلى حريم العاهل الآشوري - كما أشرنا - وبالمقابل تحتفظ المدينة باستقلالها الداخلي وتستمر بنشاطها التجاري البحري وتمتنع عن التحالف مع مصر.

(1) جورج رو، العراق القديم (مترجم) ص44.

(2) د. رياض الدوري، المصدر نفسه، ص87.

وكما هي العادة عند حكام الشرق، فقد استهوت غابات لبنان مطامع آشور بانيبال الذي يذكر في أحد سجلاته أنه استعمل في بناء معبد الإله «سين» في حرّان:

«.... الأرز العالي ينمو في لبنان Lab-na-na والشربين الذي خلقه أدد في سيرارا Si-ra-ra»[1].

وبعد حكم دام 42 سنة مات آشور بانيبال الذي كان محنكاً في أمور الدولة، وقد جعل أمته وفق تعبيره الخاص «فوق الجميع» امتدت سلطته من مصر السفلى إلى عيلام وغرب آسيا الصغرى، وأوصل الإمبراطورية إلى أوج مجدها. إلا أن نهاية حكمه اقترنت بفقدان مصر ونمو قوة الماديين وازدياد خطر السقيتيين في الشمال وكان ذلك إيذاناً ببداية التراجع[2].

(1) سيرار، هي التسمية الاكدية المرجحة لـ«سنير» أي جبل حرمون. (انطون حرب، المصدر نفسه، ص76).

(2) من آثار آشور بانيبال العمرانية: القصر الشمالي في العاصمة نينوى الذي كشف عنه الآثاري هرمز رسام العراقي عام 1854م. ومعابد عديدة في القسم الجنوبي من العراق منها معبد ايساكيلا في بابل ويذكر استعمال الأعمدة الكبيرة من خشب الأرز والسرو التي جلبها من لبنان ومعبد ايتركلاما ومعبد الآلهة عشتار في بابل ومعبد الإله شمش أي - ببارا. وخلّف منحوتات بارزة تخلّد حروبه وانتصاراته في قصوره بنينوى وغيرها من الأماكن تزيّن اليوم متاحف أوروبا. ومن آثاره المهمة المكتبة الضخمة التي حفظ فيها آلاف الوثائق والألواح التي تدل على اهتمامه بالثقافة والتي تعتبر واحدة من أقدم خزائن كتب الملوك في العراق وأجلّها شأناً وأشملها موضوعاً وكشف عنها

الملك نبوخذ نصَّر الثاني الكلداني
(605 ــ 562 ق.م)

بعد آشور بانيبال، لا نجد ذكراً لفينيقية في الحوليات الآشورية، لذلك يبدو أن المنطقة ظلت بعد سقوط الإمبراطورية الآشورية عام 612 قبل الميلاد، على نفس الوضع الذي كانت عليه في أيام اسرحدّون وآشور بانيبال: الولايات الثلاث المؤلفة من: سيميرا وصيدا وأوشو، بالإضافة إلى أرواد وجبيل وصور، كانت مستقلة نوعاً ما بحكم ذاتي تدفع الجزية.

ليس بين أيدينا مراجع تاريخية تحكي عن المدن الفينيقية بين العامين 640 و590 قبل الميلاد. غير أنه من المحتمل أن يمنحها سقوط الإمبراطورية الآشورية على أيدي الكلدانيين والميديين عام 612 ق.م حقبة مؤقتة من الرخاء كذلك من المحتمل أن الفينيقيين لم يعترضوا على توسع الفرعون «نيخو» الذي حكم على كامل إقليم سورية وفلسطين بين العامين 609 و605 قبل الميلاد.

الآثاري بول بوتا عام 1842 ـ 1848 بلغ عدد ألواحها 25.000 ألف رقم طيني حفظت جميعها في المتحف البريطاني ومتحف اللوفر.

انتهى عهد السيادة الآشورية على غربي آسية كما ظهرت في وادي الرافدين قوة عسكرية جديدة، الكلدانيون بقيادة نبوبلاسّر[1] (625 ـ 605 ق.م) الذي خرّب العاصمة العظيمة نينوى عام 612 قبل الميلاد، وقد اعتبر هؤلاء أنفسهم ورثاء آشور فادّعوا السيادة على سورية وفينيقيا على ما كان عليه الآشوريون من قبل[2].

وفي هذه الفترة التي تمّ فيها انتقال السيادة العسكرية من أيدي الآشوريين إلى الكلدانيين استطاعت مصر أن تنفض عن كاهلها النير الآشوري وتتحدى الكلدانيين في أمر السيادة والسيطرة في هذه المدينة. ونستطيع أن نقول إن المدن اللبنانية بوجه عام كانت تتأرجح وسط هذا الصراع الجديد، غير أن اتجاهها نحو جارتها الجنوبية مصر كان ظاهراً.

---

(1) نبوبلاسّر: مؤسس السلالة البابلية العاشرة، ملك بابل (625 ـ 605 ق.م) كان حاكماً لبابل عند موت آشور بانيبال عام 626 قبل الميلاد. ونادى بنفسه ملكاً وتحالف مع سياكسار ملك الماديين ضد نينوى عام 614 ق.م فاستسلمت هذه عام 612 ق.م. وسّع نبوبلاسّر رقعة ملكه. وقام عندها الجيش الآشوري بإعادة تكوين نفسه في حاران ونادى بملك جديد هو آشور أوباليت الثاني. وتمكن نبوبلاسّر من الانتصار عليه. أورث نبوبلاسّر العرش عند وفاته لابنه نبوخذ نصّر.

(2) للتفاصيل راجع كتاب الأستاذ هديب غزالة، الدولة البابلية الحديثة (626 ـ 539 قبل الميلاد) الطبعة الأولى، دمشق، (2001) الأهالي للطباعة والنشر.

وقد وجهت مصر الضربة الأولى، إذ قاد «نخو» فرعون مصر جيشاً كبيراً وسار على رأسه منتقلاً من نصر إلى نصر حتى بلغ مدينة كركميش[1] على نهر الفرات (جرابلس الحالية) حيث وجد نفسه وجهاً لوجه أمام الجيش الكلداني بقيادة نبوخذ نصّر[2] ابن نبوبلاسّر، ووريث عرشه العتيد. وأسفرت المعركة عام 605 قبل الميلاد عن انكسار الجيش المصري وانهزامه، فتابعت جيوش نبوخذ نصر المنتصرة زحفها جنوباً متعقبة آثار الجيش المصري واحتلت مدينة أورشليم عام 597 قبل الميلاد.

---

(1) كركميش: مدينة تقع في مخاضة الفرات في نقطة العبور من سورية إلى بلاد ما بين النهرين، تعرف اليوم باسم جرابلس. كانت هذه المدينة تابعة قديماً للمتانيين وقد تكون أصبحت يوماً عاصمة للحوريين الذين انطلقوا منها لفرض سيطرتهم على البلاد المجاورة. انتصر نبوخذ نصّر الثاني على نكو الثاني في هذه المدينة.

(2) نبوخذ نصّر الثاني: ابن نبوبلاسّر. تزوج بابنة سياكسار ملك الماديين. كان في صراع مستمر مع مصر للسيطرة على سورية وفلسطين. انتصر على الفرعون نكو (نخو) الثاني في كركميش عام 605 ق.م. وطلب هذا الأخير مساعدة اليهود فهاجم نبوخذ نصر أورشليم فاحتلها وسبى الآلاف من وجهائها وحرفييها وهجرهم منها، ونجح البابليون بدحرهم. أما صور فقد ظلت تقاوم حتى العام 573 ق.م. أجرى تحالفاً مع الماديين فجعل حدوده الشمالية والشمالية الشرقية آمنة. ووسع بابل وشيّد قصراً ملكياً ومعبداً لمردوخ وزقورة وجسراً كبيراً مع الجنائن المعلقة.

أما المدن الفينيقية (اللبنانية) فقد عادت إلى اتباع سياستها التقليدية: الاعتراف بالأمر الواقع. ولكنها احتفظت باستقلالها الداخلي فكانت شبه مستقلة على أن تدفع الجزية إلى الأسياد الكلدانيين الجدد. فكان اللبنانيون القدماء كسنابل الحقل تنحني عند مرور العاصفة ولكنها لا تنكسر. وهكذا أخلدوا إلى السكينة في ظل الحاكم الجديد كما أخلدوا إلى الحاكم القديم.

غير أن بعض المدن الفينيقية مثل صور وصيدا وبعض البلدان المجاورة مثل آدوم[1] ومؤاب[2] وعمون[3]، واليهودية عقدوا تحالفاً عسكرياً ضد الكلدانيين معتمدين في تحالفهم هذا على عون عسكري تقدمه لهم مصر. ولكن بعضهم كان

(1) بلاد آدوم، اسم قديم للبلاد الواقعة بين جنوبي اليهودية وشمال الجزيرة العربية التي ينسب إليها هيرودوس.

(2) مؤاب، منطقة تاريخية تقع في الهضاب المشرفة على شرقي البحر الميت، وهي اليوم قسم من الأردن.

(3) عمّون، مدينة قديمة تقع على وادي زرقا شرقي الأردن في المنطقة المعروفة بالعربية «الحجرية» والعمّونيون شعب يتحدر وفق التوراة من عمّون ابن لوط، وأطلق هذا الاسم على قبائل استقرت في شرقي الأردن ما بين اليبوك والبحر الميت، وكانت مدنهم المهمة حشبون وربّة (عمّون). وكان العمّونيون على صراع مستمر مع الآموريين المقيمين إلى الشمال منهم وتحالفوا مع المؤابيين ضد بني إسرائيل. وكانوا يعبدون الإله «ملكوم» ويقدمون له الذبائح البشرية.

يوجس خيفة من هذا التحالف العسكري. وها هو أرميا[1] النبي يتنبأ بسقوط هذه الدول المتحالفة وينصح شعبه ويحذره من مقاومة الكلدانيين[2].

يقول عن لسان يهوه:

«في ابتداء ملك يهوياقيم بن يوشيا ملَكَ يهوذا. صار هذا الكلام إلى أرميا من قبل الرب قائلاً: هكذا قال الرب لي. اصنع لنفسك رُبُطاً وأنياراً واجعلها على عنقك وأرسلها إلى ملك آدوم وإلى ملك موآب وإلى ملك بني عمّون وإلى ملك صور وإلى ملك صيدون بيد الرسل القادمين إلى أورشليم إلى صدقيا ملك يهوذا وأوصهم إلى سادتهم قائلاً: هكذا قال ربّ الجنود إله إسرائيل، هكذا تقولون لسادتكم. إني أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذي على وجه الأرض بقوتي العظيمة

(1) إرميا: ينتسب إلى قبيلة بنيامين (650 ـ 580 ق.م) قام بتنبؤاته أيام الملك يوشيا. عايش السيطرة المصرية أيام الملك يواكيم والسيطرة البابلية لاحقاً. كان مناهضاً لمبدأ التحالف مع مصر. ولم ينفك عن نصح مواطنيه بالخضوع لملوك بابل. وتسبب ذلك في اضطهاده. وقد أثبتت الأحداث اللاحقة صحة رؤياه. فإن معادلة البابليين تسببت بسقوط أورشليم بأيديهم مرتين وسبي اليهود إلى بابل. دعا ارميا إلى التقرب من الله عن طريق الصميمية في الدين. تروي الأعراق أن أرميا مات شهيداً في مصر على أيدي جماعة اليهود ساءهم لومه لهم.

(2) راجع التفاصيل في الفصل السابع والعشرين من سفر إرميا في العهد القديم.

وبذراعي الممدودة وأعطيتها لمن حسن في عيني. والآن قد دفعت كل هذه الأراضي ليد نبوخذ نصّر ملك بابل عبدي وأعطيته أيضاً حيوان الحقل ليخدمه»[1].

ولكن تحذير إرميا صيحة في وادٍ. أما نبوخذ نصّر فقد قبل التحدي وأقام لنفسه مركزاً في مدينة ربلة وهي مدينة سورية جنوبي حمص على نهر العاصي، ومن هناك أرسل جيشاً لإخضاع المدن الفينيقية ولإتمام الاستيلاء على اليهودية.

أما الجيش المصري بقيادة الفرعون خفرع[2] خليفة نخو، فقد حاول أن يقاوم الزحف الكلداني، غير أنه اضطر إلى التراجع سريعاً[3]. وبذلك تمّ قول ربشاقا[4] القائد الآشوري حيث وجّه كلامه إلى الملك حَزَقيا[5] والنبي أشعيا[1] قائلاً:

(1) سفر إرميا 27: 1 ـ 6.

(2) خفرع، فرعون مصر من السلالة الرابعة. بنى الهرم الثاني في الجيزة ولدى هيرودتس يظهر اسمه باسم أبريس (انظر فيليب حتي، المصدر نفسه، ص181).

(3) «هكذا قال الرب إله إسرائيل، هكذا تقولون لملك يهوذا الذي أرسلكم إليّ لتستشيروني، ها أن جيش فرعون الخارج إليكم لمساعدتكم يرجع إلى أرضه إلى مصر» (ارميا 37: 7).

(4) ربشاقا: من كبار قادة الآشوريين أيام الملك سنحاريب هو الذي حاصر أورشليم.

(5) حزقيا: ملك يهوذا الثالث عشر (716 ـ 693 ق.م) ابن آحاز. رمّم الهيكل وطهّره وأزال أماكن العبادة الوثنية وطرح التماثيل وحطّم الحية النحاسية التي عملها موسى لأنها صارت موضوع عبادة وثنية. اشتبك في معارك عديدة مع الآشوريين.

«فقال لهم ربشاقا قولوا لحزقيا، هكذا يقول الملك العظيم ملك آشور، ما هو هذا الاتكال الذي اتكلته. أقول إنما كلام الشفتين هو مشورة وباس للحرب. والآن على من اتكلت حتى عصيت عليّ. إنك قد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة، على مصر التي إذا توكأ أحد عليها دخلت في كفّه وثقبتها. هكذا فرعون ملك مصر لجميع المتوكلين عليه. وإذا قلت لي على الرب إلهنا اتكلنا، أفليس هو الذي أزال حزقيا مرتفعاته ومذابحه وقال ليهوذا ولأورشليم أمام هذا المذبح تسجدون»[2].

وأما أورشليم التي كانت ترأس هذا التحالف، فقد سقطت في يد الكلدانيين سنة 586 قبل الميلاد يوم 12 تموز، وبذلك زالت مملكة يهوذا من الوجود. ثم إن نبوخذ نصّر وجّه جيشه بعد ذلك نحو صور زعيمة التحالف الفينيقي. وكان ملك

(1) اشعيا النبي (القرن الثامن قبل الميلاد) معناه (الله يخلّص) مارس نبوءاته في حكم الملكين آحاز (736 ـ 716 ق.م) وحزقيّا (715 ـ 686 ق.م) عايش السيطرة الآشورية في ذروتها وشهد دمار السامرة (722 ـ 721 ق.م). بشّر بقدوم السيد المسيح المنتظر ودعا عمانوئيل «الله معنا».

(2) سفر اشعيا في العهد القديم 36: 4 ـ 7.

صور أوتو - بعل الثاني[1] عازماً على المقاومة، فأخذ يقيم الحصون وينشئ القلاع لمجابهة الجيش الكلداني. وقد صدق بعض نبوءة حزقيال[2] النبي في صور البرية لا في صور البحرية. اسمعه يقول:

«لأنه هكذا قال السيّد الربّ، هاءنذا أجلب على صور نبوخذ نصّر ملك بابل من الشمال وملك الملوك بخيل وبمركبات وبفرسان وجماعة وشعب كثير، فيقتل بناتك في الحقل بالسيف، ويبني عليك معاقل، ويبني عليك برجاً، ويقيم عليك مترسة، ويرفع عليك ترساً ويجعل مجانق على أسوارك، ويهدم أبراجك بأدوات حربه. ولكثرة خيله يغطيك غبارها من صوت

(1) بعل الثاني، ملك صور (572 ـ 562 ق.م) قامت ثورة في نهاية عهده أطاحت بالنظام الملكي فتولى الحكم قضاة لمدة سبع سنوات. ومن الجدير بالذكر أن بعل الأول (680 ـ 669 ق.م) بأيامه هاجم الملك آشور بانيبال صور وجاء في النصوص الآشورية وصف لهذا الهجوم يقول على لسان الملك: «قمت بحملتي الثالثة ضد بعل ملك صور الذي يسكن وسط البحر بعد أن لم يطع أوامري الملكية ولم يسمع كلام شفتي، فأنشأت استحكامات ضده واحتللت طرق البر والبحر فضايقت معاشه وهددت حياته فانحنى أمام سلطاني وقدّم لي ابنته وبنات اخوته لي ابنه يهيملكو (يهاف ملك) الذي لم يعبر البحر قط، فقبلت ابنته وبنات اخوته ومهورهن الغالية وتكرّمت بإرجاع ابنه إليه».

(2) حزقيال النبي: أحد أنبياء اليهود الكبار. نشأ في فلسطين ثم سبي من يهوذا مع يهوياكين (597 ق.م) بعد نفي النبي دانيال بثماني سنوات. تفرّغ في المنفى لدراسة النصوص الدينية وتأثر بالحضارة الدينية البابلية أسوة بدانيال. وهو صاحب أحد أسفار العهد القديم.

الفرسان والعجلات والمركبات تتزلزل أسوارك عند دخوله أبوابك، كما تدخل مدينة مثغورة، بحوافر خيله يدوس كل شوارعك. يقتل شعبك بالسيف فتسقط إلى الأرض انصاب عزّك، وينهبون ثروتك ويغنمون تجارتك ويهدّون أسورك ويهدمون بيوتك البهيجة، ويضعون حجارتك وخشبك وترابك في وسط المياه. وأبطّل قول أغانيك وصوت أعوادك لن يسمع بعده، وأصيّرك كضح الصخر فتكونين مَبْسَطاً للشباك لا تبنين بعد لأني أنا الرب تكلمت يقول السيد الرب»[1]. (حزقيال 26: 7 ـ 14)

أما صور البحرية، فقد نجت من الوقوع في قبضة الكلدانيين، فقد لجأ إليها أهالي صور البرية، وأنشأوا فيها وسائل الدفاع، إلا أن وسائل الدفاع الناجعة على البرّ لا تجدي نفعاً في البحر، ولكن بالرغم من ضعف وسائل الدفاع، فإنهم قاوموا الحصار مدة ثلاث عشرة سنة (585 ـ 572 قبل الميلاد) ومع هذا الحصار الطويل الأمد فإن الكلدانيين لم يهاجموا المدينة لأنها عرضت عليهم استسلاماً جزئياً قبل به الكلدانيون

(1) ينسب خطأ الدكتور فيليب حتّي في كتابه «تاريخ لبنان» ترجمة الدكتور أنيس فريحة هذا الكلام إلى أشعيا النبي (36: 6 ـ 7) بينما هو على لسان القائد الآشوري رابشاقا. ولست أدري لماذا هذا التحريف والتزوير في التاريخ؟!

فرفعوا عنهم الحصار وأخذوا من أهالي المدينة عدداً قليلاً من وجهائها وأعيانها وحملوهم إلى بلادهم كرهائن.

وقد ترك لنا الكلدانيون سجلاً بهذه الأعمال العسكرية بشكل نقشين كتبا على صخرتين عند مصب نهر الكلب. والنقش هذا نسخة طبق الأصل لنقش خَلّفه لنا نبوخذ نصّر على صخرة في وادي بريسا قرب ربلة، حيث يظهر الفاتح في النصب الأول واقفاً أمام الأرز، وفي الثاني يصدّ أسداً يهاجمه، جاء فيه ما تعريبه:

«ثقة مني بقوّة الإلهين نابو ومردوخ نظمت حملة عسكرية ضد لبنان. وقد جلبت المسرّة والبهجة إلى تلك البلاد بطردي كل عدو والقضاء عليه في طول البلاد وعرضها. وقد اجتزت ودياناً عميقة، وفتحت لجيشي مسالك في الصخر، وحيث اعترضني الصخر كنت أفتته، وهكذا أنشأت طريقاً مستقيماً ممهداً لنقل خشب الأرز. وقد وفّرت لأهل لبنان الطمأنينة والسلام. وأزلت عنهم كل ما من شأنه أن يعكر عليهم صفو الحياة. ولكن يعتبر كل طامح طامع في أرضه فلا تحدثه نفسه بالاعتداء عليهم فإني قد أقمت نصباً عليه تمثالي شاهداً أنني الملك على هذه المنطقة الذي لا زوال لملكه».

ولكن هذه السيطرة الكلدانية التي يقول عنها النقش أن «لا تزول» لم تدم أكثر من 58 سنة، فإن أحد الأعيان من الرهائن الذين احتجزهم الكلدانيون - ولعله كان ابن أوتو - بعل قد عاد وتسنم العرش الصوري تحت اسم بعل الثاني. ثم خلفه على العرش اثنان آخران من هؤلاء الأعيان الذين لا نعرف شيئاً ثابتاً عن نسبهم.

وآخر ملوك صور أحيرام الثاني. كان في عامه الرابع عشر عندما استولى كورش الفارسي[1]، مؤسس الدولة الفارسية على بابل عام (539 - 538 ق.م) وقبض على ملكها نبونئيد[2].

سقوط بابل

ترك نبونئيد مدينة بابل إلى حرّان عام 553 قبل الميلاد والتي كانت المعقل الأخير للآشوريين وأعاد فيها تشييد المعبد

---

(1) كورش (قورش الثاني) (558 - 528 ق.م) ملك الفرس، مؤسس السلالة الفارسية الأخمينية. ابن قمبيز الأول. هاجم بابل وقتل (بيل شار اوتسور) (بيلشصّر) وأسر الملك نبونئيد. أعاد إلى اليهود المسبيين الآنية الذهبية التي قد استولى عليها نبوخذ نصّر من هيكل أورشليم وسمح لليهود بالعودة إلى فلسطين في السنة الأولى من حصوله على لقب ملك بابل.

(2) نبونئيد، آخر ملوك الدولة البابلية الحديثة (الكلدانية) (559 - 538 ق.م) استسلم لقورش الفارسي. ويعني اسمه (نبو المبجّل) لم يكن من العائلة الملكية الحاكمة، ولكنه ينحدر من عائلة بابلية رفيعة المستوى فهو نجل الحاكم والأمير الحكيم المدعو نبوبلاطسو - إقبي في مدينة حرّان، وقد ورث نبونئيد عنه ثقافته العالية.

وجدد زينته بحلّة جديدة. وركّز على عبادة الإله سين (القمر) ووهب ابنته (بيل ـ شلتي ـ ننار) كاهنة عليا لهذا المعبد حيث يشير إلى ذلك من خلال أحد النصوص المكتشفة بالقرب من مدينة أور[1].

«وسألت للمرة الثالثة وبالنيابة عن ابنتي أنا
وبعد أن أتمّت العرافة وأعطتني جواباً مرضياً
مجدت كلمة الإله سين السيد الجليل، الإله خالقي
وأوامر الإله شمش وأدد، إلهة العرّافين
كرّست ابنتي لتكون كاهنة من نوع إنتو
وسميتها بيل ـ شلتي ـ ننار».

---

(1) أور، مدينة تقع جنوب العراق بالقرب من المصب القديم لنهر الفرات، وهي سابقة للوجود السومري في المنطقة دخلت في عداد المدن السومرية في عهد الملك لوكال زاكيزي في الألف الثالث قبل الميلاد. تحتوي قبور العهود الأولى المزامنة لعصور العبيد وأوروك وجمدة نصر. (انظر هديب غزالة، الدولة البابلية الحديثة، ط (2001) دمشق، ص147.

ومن حرّان انتقل إلى تيماء[1] التي تبعد عن بابل بحوالي ألف كيلومتر حيث دخل المدينة وقتل حاكمها المحلي بعد أن ترك العاصمة بابل بعهدة ولده (بيل ـ شار ـ أوصر). وخلال وجوده في تيماء عقد علاقات دبلوماسية طيبة مع القبائل العربية وبلاد مصر وأن يحافظ على علاقات جيدة مع الميديين. وكانت فترة إقامته في هذه المدينة والتي قاربت العشر سنوات كانت فترة سلام في المنطقة حيث كان يستقبل وفود تلك الأطراف في قصره المنيف في تيماء[2].

تشير وثيقة الأخبار البابلية إلى أن الخرق الأول لحدود وادي الرافدين على يد كورش الأخميني قد حدث في السنة التاسعة من حكم نبونئيد، في عام 547 قبل الميلاد، عندما قام الغازي الفارسي بعبور نهر دجلة من جهة جنوب أربيل وقتل حاكمها

---

(1) تيماء، واحة في شمال جزيرة العرب جنوبي دومة الجندل بالقرب منها كان يقع حصن السموأل ويدعى الأبلق. ذكرت في العهد القديم على أنها مدينة القوافل التي تمرّ بها في طريق تجارتها من الغرب إلى الجنوب إلى بداية الخليج العربي، ومن دمشق إلى المدينة. وذكرت في نصوص الملك تقلات بلاصّر الثالث الآشوري وفي نصوص إدارية متأخرة.

(2) في هذا الصدد نقرأ: «جعلتُ ملك مصر وعاصمة الميديين وبلاد العرب وكل الملوك المعادين يرسلون مبعوثهم أمامي عارضين السلام والعلاقات الحسنة» (راجع هديب غزالة، المصدر السابق، ص155).

المحلي المنصَّب فيها، وبذلك فقد فرض كورش سيطرته على الروافد العليا لدجلة.

وبحلول عام 546 قبل الميلاد كانت بابل معرضة لغارات الغزاة حيث أخذ كورش يهدد المناطق الجنوبية. وبحلول عام 539 قبل الميلاد أصبح الطريق ممهداً لكورش لغزو العاصمة بابل، وما أن علم نبونئيد بنوايا كورش حتى جهز جيشاً وعهد بقيادته إلى ابنه بيل - شار - أوصر الذي كان عسكرياً من الطراز الأول. ثم التقى الجيشان البابلي والفارسي بالقرب من مدينة أوبس[1] وبعد معركة قوية قتل على أثرها بيل - شار - أوصر، عبر كورش نهر دجلة. وفي اليوم الرابع عشر من شهر تشرين الأول من نفس السنة (539 ق.م) سقطت مدينة سُبار بأيدي الجيش الفارسي.

وفي اليوم السادس عشر من شهر تشرين الأول أي بعد يومين من سقوط سُبار، وهذا حدث بحيلة وخدعة من الجيش الغازي الذي قام بتحويل مجرى نهر الفرات (شط الحلّة الحالي) فدخلها القائد غوبارو وأعوانه والذي سلّمها هدية لكورش

(1) عين هيرودوتس موقع هذه المدينة بمنطقة تلول (خفاجي) التي تقع اليوم قرب ملتقى نهر ديالى بدجلة.

بدون عناء في اليوم الثالث من الشهر الثاني من عام 539 ق.م وأمر الناس بالخروج لاستقباله والترحيب به[1].

وبسقوط بابل هذا، دخل العراق تحت السيطرة الفارسية الأخمينية والفرثية ثم الساسانية، إلى أن تحرر على يد الجيوش العربية الإسلامية بعد معركة القادسية عام 638 ميلادية.

وبسقوط بابل في أيدي الفرس انتهت سيطرة العراق المتمثلة بحكومات وادي الرافدين على فينيقية (لبنان) وجاراتها من الدويلات الأخرى إلى سلطة الفرس وكان انتقالاً سهلاً لم يصحبه شيء من العنف أو الخراب. ويخبرنا نبونئيد في سجلاته أنه كان يعدّن الحديد في لبنان[2]. وكان يقطع أخشاب الأرز لصنع الأثاث الفاخر كما فعل فراعنة مصر وملوك كنعان من قبل إضافة إلى الآشوريين والبابليين.

(1) يجمع أغلب المؤرخين أن سقوط بابل بيد الفرس لم تكن الأسباب الحقيقية التي أدّت إلى انهيار المدينة هي ضعف تحصيناتها الدفاعية. بل كان (الطابور الخامس) المتمثل بالمتآمرين الموجودين في داخل مدينة بابل أثر كبير في التمهيد لدخول الفرس إليها. ويذكر العهد القديم أن بعض اليهود قد صار لهم نفوذ كبير في البلاط البابلي مثل دانيال وغيره، كما أصبح الكثير منهم من ملاكي العقارات والأموال، ومن الذين اشتغلوا بأعمال الصيرفة. غير أنهم كما يبدو بقوا على عدائهم لبابل يكيدون لها ويتآمرون عليها مع أعدائها لإسقاطها. (راجع بهنام أبو الصوف في كتابه «الكلديون ودور نبوخذ نصر»، بغداد 1988، ص439).

(2) فيليب حتّي، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة الدتور أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، بلا تاريخ.

وقد ورد في نص محفور في الصخر في وادي باريشا بلبنان يرجع تاريخه الى عهد الدولة البابلية الجديدة (الكلدانية) ما يلي:

يقول نبوخذنصر: «لقد أمرت بأن يحضر كل يوم على مائدة مردوخ والسارباتيتو حيوانان سمينان، ثور كبير ملء الجوانب كامل الأعضاء ذو جسم نقي لإقامة الطقوس الدينية، أربع وعشرون نعجة سمينة، حيوانات نقية للتضحية تكريماً لآلهة بابل، أربعة ديوك، عشر حمامات، ثلاثة رؤوس من الثوم، كمية من سمك المياه العذبة، كميات كبيرة من الخضر، محاصيل الحقول، فواكه تلمع كالذهب من أجود ما في البساتين (الحدائق)، بلح وصبار من دلمون، تين أبيض، عسل مصفى، بيرة خفيفة، زبدة وقشدة وحليب، أصفى أنواع الزيوت، دقيق أسمر ذهبي، عصير السمسم، نبيذ مشع، كل ذلك أمرت باحضاره كل يوم على مائدة مردوخ والسارباتيتو أكثر من أي وقت مضى.

(نعيم فرح، تاريخ حضارات العالم القديم وما قبل التاريخ).

الأمير كوما الآشوري

وقد ورد اسم لبنان أيضاً في نص مكتوب بالخط المسماري على لوح من الآجر المشوي وجد في مدينة آشور (شرقاط) ويرجع إلى منتصف القرن السابع قبل الميلاد.

هذا النص هو عبارة عن قصيدة نثرية تروي حلم أمير آشوري، مزهو، اسمه «كوما» أراد أن يكوّن رؤيا للعالم السفلي مملكة نرنال وأريشك.

وقد قام العلامة الألماني W. Von Soden بنقل النص وترجمته إلى الألمانية.

وفيما يلي الترجمة العربية الحرفية للمقطع الذي له علاقة باسم لبنان:

«... الاحتفال المقدس بمهرجان ـ السهل ـ للسنة الجديدة في روضة الخصب صورة لبنان Lab-na-na... إلى الآن»[1]

(1) انطوان خوري حرب، اسم لبنان عبر العصور.. ص52.

الخلاصة

خلاصة لما سبق في دراسة العلاقات الحضارية والاجتماعية والسياسية ألتي كانت بين أقوام وادي الرافدين بدءاً: بسومر ومروراً بالاكديين والبابليين الآموريين والآشوريين والكلديين وحضاراتهم الفكرية والإنسانية وبلاد فينيقيا بسعيها الآرامي الكنعاني لابد من نظرة شاملة لتلك العلاقات الوطيدة التي كانت في كثير من الأحيان تتوتر وأخرى تنبسط بحسب الظروف السياسية والعسكرية فنقول:

كانت الحضارة السائدة النشيطة الخلاّقة في الألف الثالث قبل الميلاد في جنوب غربي آسية (العراق): الحضارة السومرية، والسومريون الذين أنشأوا هذه الحضارة ومآتيها مثل الكتابة المسمارية التي أوجدوها وجزء كبير من الأدب الملحمي الذي انتجوه (ملحمة اينوما ايليش، وملحمة كلكامش) مثلاً، وغيرها من الأفكار الدينية والتراتيل الروحية التي انتشرت من خلالهم في البلدان المجاورة.

هذه الحضارة (السومرية) انتقلت إلى البابليين والآشوريين والكلدانيين وقبلهم الاكديين. وهذا الإرث الحضاري انتقل

فيما بعد إلى أهل سورية وفينيقيا وفلسطين عن طريق الآراميين والكنعانيين والفينيقيين من حواضر وادي الرافدين أور وبابل ونينوى وغيرها.

فإن اللغة الأكدية (أي البابلية القديمة) التي كانت تكتب بالخط المسماري أصبحت اللغة الدولية في المخاطبات السياسية والتجارية والفكرية في جميع أنحاء غربي آسية. فقد استخدم هذا النوع من الكتابة (الخط المسماري) ملوك فينيقيا (لبنان) في رسائلهم إلى فراعنة مصر كما يظهر في رسائل تل العمارنة[1] المشهورة واسم تموز الإله، وعشتاروت الإلهة اللذين كانا يحتلان المقام الأول مثلاً في ديانة الفينيقيين، هما إلهان سومريان (دوموزي وعشتار) وأساطير الآلهة أدونيس وبعل بما في ذلك قصة الخليقة (اينوما ايليش) والطوفان (ملحمة كلكامش) وجنة عدن، جميعها ترد في أساطير التراث الفينيقي اقتباساً ونصاً. فمثلاً كلمة هيكل (ايكالو e-gallu) ومعناها البيت العظيم، ولفظة «كرسي» و«نجار» و«صندوق» و«لوح» وغيرها ترد في التراث الفينيقي حيث كان الفينيقيون

(1) تل العمارنة: موضع في مصر العليا على نهر النيل، وهي أنقاض عاصمة الفرعون أخناتون (نحو 1366 ق.م) اكتشفت فيه المراسلات التي تبادلها الفراعنة العمارنة وملوك الشرق.

القدماء أقرب إلى أبناء وادي الرافدين منهم إلى المصريين عِرقاً ولغة.

إضافة إلى ذلك، اقتبس سكان صور وصيدا وجبيل وغيرها من حواضر لبنان القديمة، اقتبسوا الكثير من حضارة وادي الرافدين من العادات والتقاليد والأفكار وغيرها من العناصر الحضارية ونشرتها في جميع أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط، فالفينيقيون مع الإغريق أغنوا الحضارة الأوروبية من أصول حضارة وادي الرافدين كأسماء النباتات مثلاً كما ذكرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب.

من جهة أخرى نشاهد الكثير من الفينيقيين يعملون في حواضر وادي الرافدين كالمعماريين الذين استقدمهمْ ملوك بابل وآشور لتشييد المدن والمعابد والقصور كمهندسين فنانين في الطراز المعماري، وأيضاً كثير من الصرّافين الذين كانوا يعملون في بابل على أيام نبوخذ نصّر، إضافة إلى التجار وأصحاب الحرف والمهن وغيرهم.

وجميع الشعوب شرقية كانت أم غربية لا تزال حتى اليوم تستعمل النظام الاثني عشري (الذي قوامه 12) أو الستيني (الذي قوامه 60) لقياس الزمن وهو النظام الذي يعود في أصله إلى الحساب البابلي الذي نقله الفينيقيون إلى أوروبا. وكذلك

تقسيم السنة إلى 12 شهراً والأسبوع إلى 7 أيام لا يزال التقسيم الزمني المتبع في عهدنا هذا، وهو بابلي الأصل، والعلامات التي نستعملها لمنطقة البروج تكاد تكون واحدة التي انتقلت من البابليين والآشوريين والفينيقيين وكثير من الموازين والمقاييس التي تعود في أصلها أيضاً إلى البابليين انتشرت في جميع أنحاء العالم على أيدي الفينيقيين اللبنانيين[1].

وهكذا نختم بحثنا المتواضع هذا الذي وضعته خدمة للتاريخ والحضارة المشتركة بين لبنان والعراق وما يربطهما من أواصر التراث الواحد. عسى أن نكون قد أدّينا واجباً علمياً ما زال يطلب الكثير من البحث والتفتيش لتقديم الصورة الواضحة لهذه البلاد العريقة التي قدمت للبشرية جمعاء.

والله وليّ التوفيق.

دير يسوع الملك

1 نيسان 2008

(1) فيليب حتّي، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور.

جريدة المصادر والمراجع

1 ـ العهد القديم.

2 ـ المطران مارغريغوريوس صليبا سمعون، الممالك الآرامية، حلب، بلا تاريخ.

3 ـ المطران مارسويريوس اسحق ساكا، الآراميون، حلب، 1983.

4 ـ الدكتور فيليب حتّي، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور إلى عصرنا الحاضر، ترجمة الدكتور أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، بلا تاريخ.

5 ـ الدكتور فيليب حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة الدكتور جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، بلا تاريخ.

6 ـ هديب غزالة، الدولة البابلية الحديثة، دمشق 2001.

7 ـ رضا جواد الهاشمي، آثار الخليج والجزيرة العربية، بغداد، 1984.

8 ـ الدكتور بهنام أبو الصوف، الكلديون ودور نبوخذ نصر القيادي، بغداد 1988، جزءان.

9 ـ طه باقر، ملحمة كلكامش، مطبعة الرابطة، بغداد، 1962.

10 ـ الدكتور انطوان خوري حرب، لبنان، جدلية الاسم والكيان، منشورات مؤسسة التراث اللبناني 2000.

11 ـ الدكتور كمال صليبي، التوراة جاءت من الجزيرة العربية، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1985.

12 ـ المطران ادّي شير، تاريخ كلدو وآثور، المطبعة الكاثوليكية بيروت، 1912.

13 ـ هنري س. عبودي، معجم الحضارات السامية، جروس برس طرابلس 1991.

14 ـ الشيخ نسيب وهيبة الخازن، من الساميين إلى العرب، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، بلا تاريخ.

15 ـ فراس السوّاح، آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ، منشورات دار علاء الدين، دمشق 2002.

16 ـ الدكتور علي أبو عسّاف، الآراميون تاريخاً ولغة وفنّاً، دار أماني للطباعة والنشر، طرطوس 1988.

17 ـ ا. دوبون سومر، الآراميون، تعريب ناظم الجندي، دار أماني للطباعة والنشر، طرطوس بلا تاريخ.

18 ـ دوبونت سومر، الآراميون، ترجمة الأب البير أبونا، دار الورّاق للنشر المحدودة، 2007.

19 ـ سباتينو موسكاتي، الحضارة الفينيقية، ترجمة نهاد خياطة، مكتب الفيحاء، دمشق 1988.

20 ـ البرت كيرك كيرسون، الكتابات الملكية لآشور ناصر بال الثاني، ترجمة صلاح سليم علي، دارادي شير، اربيل 2004.

21 ـ هاري ساكز، قوّة آشور، ترجمة الدكتور عامر سليمان، منشورات المجمع العلمي، بغداد، 1999.

22 ـ الدكتور عبد الله الحلو، سورية القديمة، الكتاب الأول، التاريخ العام، دمشق، 2004.

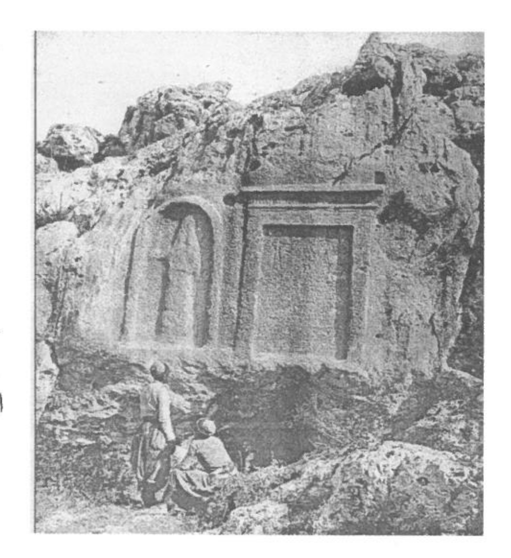
23 ـ الدكتور رياض عبد الرحمن الدوري، آشور بانيبال، سيرته ومنجزاته، بغداد (2001).

24 . Daniel D. Luckenbil, Ancient Records of Assyria and Bab'y lonia, 2 vois, (Chicago 1926).

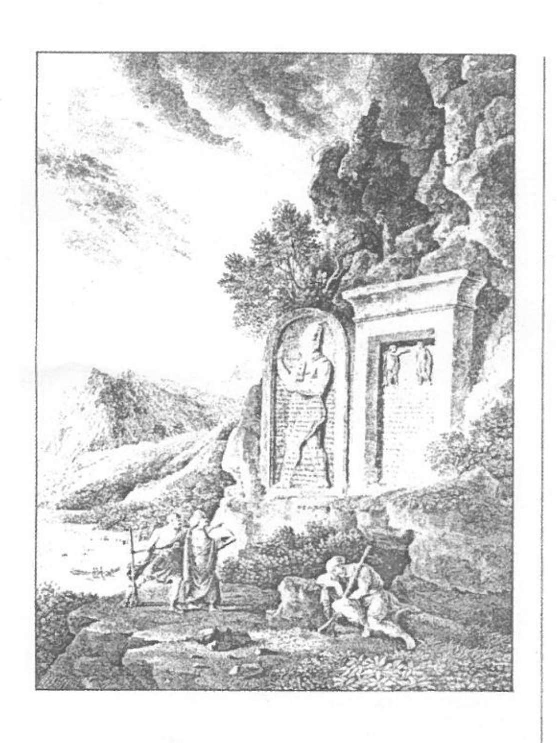




كلكامش



اللوحات الأثرية على نهر الكلب



عند مصب نهر الكلب حيث ينتصب الجبل عامودياً على
البحر . متحف مقام على صخرة في العراء يشتمل على
أنصاب وتماثيل للآلهة وللملوك وكتابات بلغات ثمانٍ بدءاً
بالهيروغليفيّة المصرية . فالأشوريّة فالبابلية فاليونانيّة فاللاتينية
وانتهاءاً بالفرنسية والأنكليزيّة والعربيّة .
لبنان متحف للشعوب وللأمم .. ترحّلوا وحفظنا لهم آثارهم .
(إلى فوق) : نهر الكلب Gravure L.F. Cassas
(فوق . الى اليسار) : نصب مصري وآخر أشوري .L. Bonfils 1904





«إن العادة عند الملوك الأقدمين بإقامة أنصاب وسجلات
لفتوحاتهم على صخور لبنان عند شاطىء البحر المتوسط لا
تحتاج إلى إثبات . وخير دليل على تلك العادة النقوش
المحفورة على صخور نهر الكلب» .

(إلى اليسار) : نصب الملك الأشوري اسرحدون

[illegible] السبعة البابلية
القديمة (أوائل القرن التاسع عشر ق . م) - مكتوب على لوح
من الآجر المشوي . حيث يرد اسم لبنان لأول مرة في التاريخ
بنص مكتوب بالخط السوماري القطعي (آخر السطر ١٣ في
النص . إلى اليسار)

نص الملك الأشوري شمشي — أدد الأول (أواخر القرن التاسع عشر ق.م.) بالخط المسماري المقطعي. يرد إسم لبنان في العامود الرابع Col. IV أوّل السطر ١٥.

الفهرس